

عبد الحميد رشك

في
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الخامس عشر

المكتبة المصرية الحديث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإسراء

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وآياتها مائة وخمس عشرة آية عند الكوفيين ، وكلماتها ألف وخمسمائة وثلاث وستون ، وحروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون .

مقصود السورة

تنزيه الحق تعالى ، ومعراج النبي ﷺ ، والإسراء إلى المسجد الأقصى ، وشكر نوح عليه السلام ، وفساد حال بنى إسرائيل .

ومكافأة الإحسان والإساءة ، وتقويم القرآن الخلائق ، وتخليق الليل والنهار .

وبيان الحكمة في سير الشمس والقمر ودورهما ، وملازمة البخت المرء ، وقراءة الكتب في القيامة .

وبيان الحكمة في إرسال الرسل ، والشكوى من القرون الماضية .

وذكر طلب الدنيا والآخرة ، وتفضيل بعض الخلق على بعض ، وجعل بر الوالدين والتوحيد في قرن واحد ، والإحسان إلى الأقارب .

والأمر بترك الإسراف ، وذر البخل ، والنهي عن قتل الأولاد ، وعن الزنا ، وقتل النفس ظلماً ، وأكل مال اليتيم ، وعن التكبر ، وكراهية جميع ذلك .

والسؤال عن المقول والمسموع ، والرد على المشركين ، وتسبيح الموجودات .

وتعيير الكفار بطعنهم في القرآن ، ودعوة الحق الخلق وإجابتهم له تعالى .

وتفضيل بعض الأنبياء عن بعض ، وتقرب المقربين إلى حضرة الجلال ، وإهلاك القرى قبيل القيامة ، وفتنة الناس برؤيا النبي ﷺ ، وإبلاء إبليس من السجدة لآدم ، وتسليط الله إياه على الخلق . وتعديد النعم على العباد ، وإكرام بنى آدم ، وبيان أن كل أحد يدعى في القيامة بكتابه ودينه وإمامه ، وقصد المشركين إلى ضلال الرسول ﷺ وإذلاله .

والأمر بإقامة الصلوات الخمس في أوقاتها . وأمر الرسول ﷺ بقيام الليل ، ووعد بالمقام المحمود ، وتخصيصه بمدخل صدق ونخرج صدق ، ونزول القرآن بالشفاء والرحمة .

والشكاية من إعراض العبيد ، وبيان أن كل أحد يصدر منه ما يليق به .
والإشارة إلى جواب مسألة الروح ، وعجز الخلق عن الإتيان بمثل القرآن ، وإقتراحات المشركين
على رسول الله ﷺ ، وتفصيل حالهم في عقوبات الآخرة .
وبيان معجزات موسى ومناظرة فرعون إياه ، وبيان الحكمة في تفرقة القرآن ، وآداب نزوله ،
وآداب الدعاء ، وقراءة القرآن .
وتنزيه الحق تعالى عن الشريك والولد ، في ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ﴾ إلى قوله ﴿ وكبره
تكبيرا ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ .
وخصت سورة الكهف ﴿ أجراً حسناً ﴾ لأن الأجر في السورتين الجنة والكبير والحسن من
أوصافها ، لكن خصت هذه السورة بالكبير بفواصل الآي قبلها وبعدها ، وهي : ﴿ حصيراً ﴾
و ﴿ أيماً ﴾ و ﴿ عجولاً ﴾ ، وكلها وقع قبل آخرها مدة .
وكذلك في سورة الكهف جاء على ما يقتضيه الآيات قبلها وبعدها ، وهي ﴿ عوجاً ﴾ وكذا
﴿ أبداً ﴾ وكلها ما قبل آخرها متحرك .
وأما رفع ﴿ يبشر ﴾ في سبحانه ، ونصبها في الكهف ، فليس من المتشابه .
قوله : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً ﴾ وقوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى
عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ .
وقوله : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ .
فيها بعض التشابه ، ويشبه التكرار وليس بتكرار ، لأن الأولى في الدنيا ، والثالثة في العقبى ،
والخطاب فيها للنبي ﷺ ، والمراد به غيره كما في قوله : ﴿ إما يبلغن عندك الأكبر ﴾ .
وقيل : القول مضمّر أى قل لكل واحد منهم : لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً في
الدنيا ، وتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً في الأخرى .
وأما الثانية فخطاب للنبي ﷺ وهو المراد به ، وذلك أن امرأة بعثت صبيّاً لها إليه مرة بعد
أخرى ، سألته قميصاً ولم يكن عليه ولا له ﷺ قميص غيره ، فنزعه ودفعه إليه ، فدخل وقت الصلاة ،
فلم يخرج حياءً ، فدخل عليه أصحابه فرأوه على تلك الصفة فلاموه على ذلك ، فأنزل الله تعالى :
﴿ فتقعد ملوماً ﴾ يلوّمك الناس ﴿ محسوراً ﴾ مكشوفاً ، هذا هو الأظهر من تفسيره والله أعلم .

قوله : ولقد صرفنا في هذا القرآن ﴿ ليذكروا ﴾ وفي آخر السورة : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن ﴾ وقال في الكهف : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس ﴾ .

إنما لم يذكر في أول سبحان ﴿ للناس ﴾ لتقدم ذكرهم في السورة ، وذكرهم في ﴿ الكهف ﴾ إذ لم يجز ذكرهم ، وذكر الناس في آخر سبحان ، وإن جرى ذكرهم لأن ذكر الانس والجن جرى معاً فذكر ﴿ للناس ﴾ كراهة الالتباس وقدمه على [في هذا القرآن] كما قدمه في قوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ ثم قال : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن ﴾ . وأما في الكهف فقدم ﴿ في هذا القرآن ﴾ لأن ذكره أجل الغرض ، وذلك أن اليهود سألته عن قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، فأوحى الله إليه في القرآن ، وكأن تقديمه في هذا الموضوع أجدر ، والعناية بذكره أخرى وأخلق .

قوله : ﴿ وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أثنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ .

ثم أعادها في آخر السورة بعينها من غير زيادة ولا نقصان ، لأن هذا ليس بتكرار ، فإن الأول من كلامهم في الدنيا حين جادلوا الرسول وأنكروا البعث ، والثاني من كلام الله حين جازاهم على كفرهم وقولهم ذلك وإنكارهم البعث ، فقال ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أثنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ .

قوله : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا ﴾ .

وفي الكهف ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ .

اقتصر هنا على الإشارة لتقدم ذكر جهنم ، ولم يقتصر عليها (في الكهف) وإن تقدم ذكر جهنم ، بل جمع بين الإشارة والعبارة لما اقترن بقوله ﴿ جنات ﴾ فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ ثم قال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس ﴾ ، ليكون الوعد والوعيد كلاهما ظاهرين .

قوله ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ وفي سبأ ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ لأنه يعود إلى الرب وقد تقدم ذكره في الآية الأولى وهو يقول ﴿ وربك أعلم ﴾ وفي سبأ لو ذكر بالكناية لكان يعود إلى الله كما صرح فعاد إليه وبينه وبين ذكره سبحانه صريحاً أربع عشرة آية فلما طال الفصل صرح بقوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي ﴾ وفي غيرها ﴿ أرأيت ﴾ لأن ترادف الخطاب يدل على أن المخاطب به أمر عظيم ، وهكذا هو في السورة لأنه لعنه الله ضمن احتناك ذرية آدم عن آخرهم إلا قليلاً .

ومثل هذا ﴿ أرأيتكم ﴾ في الأنعام في موضعين .

وقوله ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ : وفي الكهف زيادة : ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ لأن ما في السورة معناه : ﴿ ما منعهم ﴾ عن الإيمان بمحمد إلا قولهم : أبعث الله بشراً رسولاً ، هلا

بعث ملكاً ، وجعلوا أن التجانس يورث التوانس ، والتغاير يورث التنافر ، وما في الكهف معناه :
ما منعهم عن الإيمان والاستغفار إلا اتباع سنة الأولين .

قال الزجاج : إلا طلب سنة الأولين وهو قولهم ﴿إن كان هذا هو الحق﴾ فزاد : ويستغفروا ربهم
لاتصاله بقوله : ﴿سنة الأولين﴾ وهم قوم نوح وصالح وشعيب ، كلهم أمروا بالاستغفار فنوح بقوله :
﴿استغفروا ربكم إنه كان غفراً﴾^(١) .

وهود يقول : ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾^(٢) .

وصالح يقول : ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾^(٣) .

وشعيب يقول : ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾^(٤) .

فلما خوفهم سنة الأولين أجرى المخاطبين مجراهم .

قوله ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ وكذا جاء في الرعد ، وفي العنكبوت ﴿قل كفى بالله
بينى وبينكم شهيداً﴾ كما في الفتح ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ ، ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ ، ﴿وكفى بالله
حسيباً﴾ .

فجاء في الرعد ، وفي سبحان على الأصل ، وفي العنكبوت آخر ﴿شهيداً﴾ لما وصفه بقوله تعالى
﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ فطال .

قوله : ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر﴾ ، وفي الأحقاف ﴿بقادر﴾ وفي يس
﴿بقادر﴾ لأن ما في هذه السورة خبر أن ، وما في يس خبر ليس ، فدخل الباء الخبر وكان القياس ألا
يدخل في حم ، لكنه شابه (ليس) بترادف النفي وهو قوله ﴿أولم يروا﴾ ، [ولم يعي] .
وفي هذه السورة نفى واحد ، وأكثر أحكام التشابه ثبت من وجهين قياساً على باب مالا ينصرف
وغیره .

قوله ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ قابل موسى كل كلمة من فرعون بكلمة من نفسه فقال
﴿وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً﴾

(١) الآية ١٠ من سورة نوح

(٢) الآية ٥٢ من سورة هود

(٣) الآية ٦١ من سورة هود

(٤) الآية ٩٠ من سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا
حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْتَانَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

أخرج أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم عن عائشة (أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمزم)^(١) .

وأخرج البخارى وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال فى هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء: ﴿هم من العتاق الأول وهم من تِلَادَى﴾^(٢) .

وجه مناسبتها لسورة النحل

- ١ - أنه سبحانه ذكر فى سورة النحل اختلاف اليهود فى السبت ، وهنا ذكر شريعة أهل السبت التى شرعها لهم فى التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : (إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل) .
- ٢ - أنه لما أمر نبيه ﷺ بالصبر ونهاه عن الحزن وضيق الصدر من مكربهم فى السورة السالفة ، ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه .
- ٣ - أنه ذكر فى السورة السالفة نعمًا كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم ، ذكر هنا أيضًا نعمًا خاصة وعامة .
- ٤ - ذكر هنا أن النحل ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ ، وهنا ذكر ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ .
- ٥ - أنه فى تلك أمر بإيتاء ذى القربى ، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وابن السبيل .

المفردات : ﴿سبحان الذى أسرى﴾ : أى تنزىها له من كل مالا يليق بجلاله وإكباره ،
﴿والإسراء كالتسرى﴾ : السير بالليل خاصة ، ﴿والمسجد الحرام﴾ : مسجد مكة ، ﴿والمسجد الأقصى﴾ : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز .

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٥٨ ، وفى ٥ : ١١٤ ، ١٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٧ ، ١ ، وسورة ٢١ ، ١ . وفى فضائل القرآن : ٦ .

أكثر العلماء أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لامناً ، ولهم على ذلك أدلة :

- ١ - أن التسبيح والتعجب في قوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ : إنما يكون في الأمور العظام ، ولو كان ذلك مناماً لم يكن فيه كبير شأن ، ولم يكن مستعظماً .
- ٢ - أنه لو كان مناماً ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه ولما قالت أم هانئ : لا تحدث الناس فيكذبوك . ولما فضل أبو بكر بالتصديق ، وجاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ (لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها) لم أعرفها حق المعرفة (فكربت كرباً ما كربت مثله قط فرفعه الله لي انظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به) الحديث .
- ٣ - إن قوله ﴿ بعبدِهِ ﴾ : يدل على مجموع الروح والجسد .
- ٤ - إن ابن عباس قال في قوله ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ، ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا في المشاهدة الحسية . ألا ترى إلى قول الراعي يصف صائداً :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر قلباً كان جمّاً بلا به

- ٥ - إن الحركة بهذه السرعة ممكنة في نفسها ، فقد جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة ، فقد قال تعالى في صفة سير سليمان عليه السلام ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾^(١) وجاء فيه أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر ، كما قال تعالى : ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾^(٢) وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم .

قال أبو جعفر الطبري : الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبدِهِ محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده ، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ ، أن الله حمله على البراق حتى آتاه به ، وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل ، فأراه ما أراه من الآيات . ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته ، ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكراً عندهم ، ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرأى منهم في المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل .

(١) الآية ١٢ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النمل .

وبعد فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعده ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزاً لاحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره ، إلى أن الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجساد هـ .

وكذلك كان المعراج إلى السموات العلى بجسده وروحه يقظة لامناً ، لدليلين :

١ - آية الاسراء ، إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبد والعبد مجموع الروح والجسد ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً بهما .

٢ - الحديث المروى في الكتب الصحاح كالبخارى ومسلم وغيرهما وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات العلى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الاقلام .

وفي الإسراء والمعراج موعظة وذكرى .

يقول الشيخ المراغى رحمه الله تعالى :

إننا لنقف قليلاً لدى هذين الحادثين الجليلين ، لنستخلص منهما أموراً هي الغاية في العظة والاعتبار :

١ - إن هاتين الرحلتين : الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا في ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ، ليحص الله المؤمنين ، ويبين منهم صادق الإيمان ومن في قلبه منهم مرض ، فيكون الأول خليقاً بصحبة رسوله الأعظم إلى دار الهجرة ، والانضواء تحت لوائه ، وجديراً بما يحتمله من أعباء عظام ، وتكاليف شاقة ، من حروب دينية ، وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء ، وإنشاء دولة تبتلع المعمور في ذلك الحين شرقاً وغرباً .

٢ - إن الله أطلع رسوله على ما في هذا الكون أرضيه وسماويه من العظمة والجلال ليكون ذلك درساً علمياً لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر ، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة أو يجلس إلى معلم . أو يسبح في أرجاء المعمورة ، أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء . فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى ، وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التي لا تصل أذهاننا إلى إدراك فهمها ، إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأننى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾^(١) .

٣ - إن ما يجد كل يوم من ضروب المخترعات والتوسل بها إلى طي المسافات بوسائل الطائرات ، وقطع المحيطات في قليل الساعات من قارة إلى قارة ، ومن قطر إلى قطر ، ليجعلنا نعتقد أن ما جاء في وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التي ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

٤ - إن روحانية الأنبياء تغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيل إلينا من العوائق العملية من صعوبة الوصول إلى الملأ الأعلى لتخلخل الهواء ، وإستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة في عالم الحس ، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاماً لم يصل العقل البشرى إلى تحديدها ، وإبداء الرأى فيها ، وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ، ولا التعمق في استقصاء آثارها .

٥ - إن ما جاء في الحديث من أن الرسول ﷺ صلى إماماً بالأنبياء ، ليرشد إلى أن محمداً ﷺ جاء بشريعة ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأتمتها ومن أوتوها ألقوا الزعامة إليه ، وصاروا مؤتمين به .

٦ - إن في هذا مغزى جديداً بطويل التأمل والتفكير ، وهو أن جميع الأنبياء كانوا في وفاق ووثام في الملكوت الأعلى بالقرب من ربهم الذى أرسلهم ، أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم ، وأن يجعلوا أمرهم بينهم مسلماً لا حرباً ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة والقانون الذى جاءت به هو الشريعة التى يقضى بها بين الناس كما هو المتبع في القوانين الوضعية ، فإن الذى يجب العمل به هو القانون الأخير ، وهو يلغى جميع ما سبقه .

شرح وتفصيل

لمعجزتى الإسراء والمعراج شرح وتفصيل في السنة المطهرة .

قال العلامة ابن كثير في قوله : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ :

قال رحمه الله : يمجّد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ الذى أسرى بعبده ﴾ : يعنى محمداً ﷺ ﴿ ليلاً ﴾ : أى في جنح الليل ﴿ من المسجد الحرام ﴾ : وهو مسجد مكة ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ : وهو بيت المقدس الذى بإيلياء ، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأتمهم في محلّتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ الذى باركنا حوله ﴾ : أى في الزروع والثمار ﴿ لنريه ﴾ : أى محمداً ﴿ من آياتنا ﴾ : أى العظام ، كما قال تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ (١) .

وسنذكر من ذلك ماوردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ .

وقوله تعالى ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ : أى السميع لأقوال عباده ، مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم ، فيعطى كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

قال الإمام أبو عبد الله البخارى : حدثنى عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان هو ابن بلال عن شريك بن عبد الله قال : سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة (إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو ؟ فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم . فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أقى بطست من ذهب فيه نور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاد يده - يعنى عروق حلقه - ثم أطبقه . ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناده أهل السماء من هذا ؟ فقال جبريل قال : ومن معك ؟ قال معى : محمد . قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم قالوا : فمرحباً به وأهلاً يستبشر به أهل السماء ، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض ، حتى يعلمهم .

فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل : هذا أبوك آدم . فسلم عليه ، وردّ عليه آدم ، فقال : مرحباً وأهلاً بابنى نعم الابن أنت ، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات ، عنصرهما ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب بيده فإذا هو مسك أزفر ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك

ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة في الأولى : من هذا ؟ قال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال محمد ﷺ قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . قالوا : مرحباً به وأهلاً ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك .

كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية ، وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة . بتفضيل كلام الله تعالى .

فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع عليّ أحداً .

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، حتى جاء سدره المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة .

ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة . قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعندهم ، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير في ذلك ، فأشار إليه جبريل : أن نعم إن شئت . فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو في مكانه : يارب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا . فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال : يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل .

فرفعه عند الخامسة فقال : يارب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار تبارك تعالى : يا محمد . قال : لبيك وسعديك . قال : إنه لا يبدل القول لدى ، كما فرضت عليك في أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك . فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها ، قال موسى : قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً . قال رسول الله ﷺ : يا موسى قد والله استحيت من ربي عز وجل مما أختلف إليه . قال : فاهبط باسم الله . قال : واستيقظ وهو في المسجد الحرام^(١) .

وهكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد ورواه في صفة النبي ﷺ .

قالت عائشة وابن مسعود وأبو هريرة في حملهم قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴿ فأوحى إلى عبده ﴾ ما أوحى ﴿ الخ الآيات حمل هذه الآيات على جبريل أصح . قال أبو ذر : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : (نور أنى أراه) وفي رواية : (رأيت نوراً)^(٢) أخرجه مسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : (أتيت بالبراق وهو دابة

(١) أخرجه البخاري في الصلاة : ١ ، وفي الأنبياء : ٥ ، وفي التوحيد : ٣٧ . ومسلم في الإيمان : ٢٥٩ ، ٢٦٣ . وابن ماجة في الإقامة :

١٩٤ . والإمام أحمد في ٣ : ١٤٩ ، وفي ٥ : ١٤٤ .

(٢) الآيات ٨ - ١٠ من سورة النجم .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٩١ . والترمذي في تفسير سورة ٥٣ : ٧ . والإمام أحمد في ٥ : ١٥٧ ، ١٧١ ، ١٧٥ .

أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين .

ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل : أصبت الفطرة قال ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بابن الخاله يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى الشطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير ثم يقول الله تعالى ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾^(١) .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ، قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل قد أرسل إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد فقيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام وإذا هو مستند إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها قال فأوحى الله إلي ما أوحى وقد فرض على في كل يوم وليلة خمسين صلاة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى قال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك . وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربى فقلت أى رب خفف عن أمتى فحط عني خمسا فنزلت حتى انتهيت إلى

موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عني خمساً ، فقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك قال فلم أزل أراجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمساً خمساً حتى قال : يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عشرأً ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته ، فقال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك فقال رسول الله ﷺ لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت .

قال البيهقي وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس ، وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية .

مشاهد ليلة الإسراء والمعراج

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (لما عرج بي إلى ربي عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم)^(١) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (مررت ليلة أسرى بي على موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره)^(٢) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حركت ذنبها فقال لها جبريل : مه يابراق ، فوالله ماركبك مثله . وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقال : (ماهذه يا جبريل ؟) قال : سر يا محمد قال : فسار ماشاء الله أن يسير ، فإذا شيء يدعو متنجحاً عن الطريق فقال : هلم يا محمد ، فقال له جبريل : سر يا محمد . فسار ماشاء الله أن يسير . قال : فلقيه خلق من خلق الله فقالوا : السلام عليك يا أول السلام عليك يا آخر السلام عليك يا حاشر . فقال له جبريل : أردد السلام يا محمد . فرد السلام ، ثم لقيه الثانية فقال له مثال مقالته الأولى ، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فعرض عليه الخمر والماء واللبن ، فتناول رسول الله ﷺ اللبن فقال له جبريل : أحببت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك ، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمرهم رسول الله ﷺ تلك الليلة . ثم قال له جبريل : أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقى من عمر تلك العجوز .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب : ٣٥ . والإمام أحمد في ٣ : ٢٢٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ١٢٠ .

وأما الذى أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس ، أراد أن تميل إليه .
وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام . وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة .

وفى حديث لابن أبى حاتم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : يا جبريل (مالى لم آت أهل سماء إلا رحبوا بى وضحكوا إلى غير رجل واحد فسلمت عليه فرد على السلام ، ورحب بى ولم يضحك لى) قال : يا محمد ذاك مالك خازن جهنم ، لم يضحك منذ خلق ، ولو ضحك لى أحد لضحك إليك .

قال : ثم ركب منصرفاً فبينما هو فى بعض الطريق مر بعير لقريش تحمل طعاماً منها حمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت ، وصرع ذلك البعير وانكسر ، ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عما كان ، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبابكر فقالوا : يا أبابكر هل لك فى صاحبك ؟ يخبر أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر ورجع فى ليلته . فقال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قاله فقد صدق ، وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، لنصدقه على خبر السماء . فقال المشركون لرسول الله ﷺ : ما علامة ما تقول ؟ قال : (مررت بعير لقريش وهى فى مكان كذا وكذا فنفرت الإبل منا واستدارت وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر) فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله ﷺ ، ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق .

وسألوه وقالوا : هل كان فىمن حضر معك موسى وعيسى ؟ قال : (نعم) قالوا : فصفهم لنا . قال : (نعم أما موسى فرجل آدم كأنه من رجال أزد عمان ، وأما عيسى فرجل ربعة سبط تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان)^(١) .

وروى البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث رسول الله ﷺ قال : (خرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه فى صدرى ، ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فخرج بى إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء : افتح قال : من هذا ؟ قال : جبريل . قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم معى محمد ﷺ . فقال : أرسل إليه ؟ قال : نعم . فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال مرحباً : بالنبي الصالح والابن الصالح . قال : قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسمة بنىه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى)^(٢) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ . ١٩٧ ، ٢٥٤ ، ٢٧٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة : ١ ، وفى الأنبياء : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٢٦٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٤٣ .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة عن أبي سعيد الخدري . فقال : قال رسول الله ﷺ : فاستفتح جبريل باب السماء قيل : من هذا ، قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : نعم ، فإذا بآدم كهيبته يوم خلقه الله عز وجل على صورته ، فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين .

فمضيت هنيئة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ، ليس يقرها أحد ، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأتن عندها أناس يأكلون منها . قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك يأتون الحرام ويتركون الحلال .

قال : ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأقوام مشافهم كمشافر الإبل ، قال : فتفتح أفواههم فيلقمون من ذلك الجمر ، ثم يخرج من أسافلهم ، فسمعتهم يضحجون إلى الله عز وجل فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً . قال : ثم مضيت هنيئة ، فإذا أنا بنساء تعلقن بشدين فسمعتن يضحجن إلى الله عز وجل . قلت : يا جبريل من هؤلاء النساء ؟ قال : هؤلاء الزناة من أمتك .

قال : ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلنا نهض أحدهم خراً فيقول : اللهم لا تقم الساعة . قال : وهم على سابلة آل فرعون ، قال : فتجىء السابلة فتطوهم . قال : فسمعتهم يضحجون إلى الله . قال : قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس .

قال : ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه ، فيقال له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون . ومن المشاهد التي رواها الصادق المعصوم : ما جاء في قوله ﷺ :

(ثم إنى رفعت إلى الجنة فاستقبلتنى جارية ، فقلت : لمن أنت يا جارية ؟ قالت : لزيد بن حارثة ، وإذا بأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من غسل مصفى ، وإذا رمانها كالدلاء عظما ، وإذا أنا بطيرها كأنها يختكم هذه . فقال عندها ﷺ : إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال : ثم عرضت على النار فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته ، ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها ، ثم أغلقت دوني^(١) .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق : ٨ ، وفي تفسير سورة ٣٢ : ١ ، وفي التوحيد : ٣٥ . ومسلم في الإيمان : ٣١٢ ، وفي آية : ٢ .
والترمذي في تفسير سورة ٣٢ : ٢ ، وسورة ٥٦ : ١ . وابن ماجة في الزهد : ٣٩ . والإمام أحمد في ٥ : ٣٣٤ .

ومن المشاهد التي رآها الصادق المعصوم ما جاء في رواية الإمام أحمد عن ابن عباس قال : (ليلة أسرى برسول الله ﷺ دخل الجنة فسمع في جانبها وخشياً ، فقال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا بلال المؤذن . فقال : النبي ﷺ حين جاء إلى الناس : (قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا) قال : فلقية موسى عليه السلام فرحب به ، وقال : مرحباً بالنبي الأُمِّي . قال : وهو رجل آدم طويل سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما فقال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى .

قال : فمضى فلقية شيخ جليل متبيب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه . قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

قال : ونظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف . قال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ورأى رجلاً أحمر أزرق جدا ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة^(١) .

ومن المشاهد التي رآها رسول الله ﷺ ما رواه الإمام البيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (لما أسرى بي مرت بي رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة ؟ قال : ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط المشط من يدها . فقالت : باسم الله ، فقالت بنت فرعون : أئى ؟ قالت : ربي وربك ورب أبيك ، قالت : أولك رب غير أئى ؟ قالت : نعم : ربي ورب أبيك الله . قال : فدعاها فقال : ألك رب غيرى ؟ قالت نعم ربي وربك الله عز وجل . قال : فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها . قالت : إن لي إليك حاجة . قال : ماهى ؟ قال : تجمع عظامي وعظام ولدى في موضع . قال : ذاك لك لما لك علينا من الحق . قال : فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم . فقال : يا أئمة قعي ولا تقاعسى فإنك على الحق . قال : وتكلم أربعة في المهد وهم صغار هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام .

قال الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : (لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا أمر الساعة قال : فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام . فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى . فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال : أما وجبتا فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل ، وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج قال : ومعنى قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص . قال : فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم إن تحتى كافراً فتعال فاقتله . قال فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم . قال : فعند ذلك يخرج بأجوج وأجوج وهم من كل حذب ينسلون ، فيطئون بلادهم فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه . قال : ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أى نتن .

(١) أخرجه البخارى في الأنبياء : ١٧ ، وفي تفسير سورة ٩١ : ١ . والإمام أحمد في ٤ : ١٧ ، ٢٦٣ .

قال فينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر . ففيما عهد إلى أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلا أو نهاراً^(١) .

ومن المشاهد ما رواه الإمام أبو جعفر بن جرير عن أبي هريرة في قول الله عز وجل ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ : الآية . قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ ومعه ميكائيل فقال جبريل لميكائيل اثنني بطست من ماء زمزم كيما أظهر قلبه وأشرح له صدره ، قال فشق عنه بطنه فغسله ثلاث مرات واختلف إليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم فشرح صدره فنزع ما كان فيه من غل وملاءه علماً وحلماً وإيماناً و يقيناً وإسلاماً وختم بين كتفيه بخاتم النبوة ثم أتاه بفرس فحملة عليه كل خطوة منه منتهى بصره أو أقصى بصره . قال : فسار وسار معه جبريل عليهما السلام .

قال : فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال النبي ﷺ : « يا جبريل ما هذا ؟ » قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترسخ رعوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال : « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » قال : هؤلاء الذين تتناقل رعوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم . ويأكلون الضريع والزقوم ورفض جهنم وحجارتها قال : « فما هؤلاء يا جبريل » . قال : هؤلاء الذين لا يؤدّون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله تعالى شيئاً وما الله بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحم نيء في قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من اللحم النيء الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال : « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » فقال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حللاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح .

قال : ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شيء إلا خرقة قال : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونها . ثم تلا ﴿ولا تقعدون بكل صراط توعدون وتصدون﴾^(٢) الآية .

قال : ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها .

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن : ٣٣ . والإمام أحمد في ١ : ٢٧٥ .

(٢) الآية ٨٦ من سورة الأعراف .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال : هؤلاء خطباء الفتنة .

ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع فقال : « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها .

ثم أتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة وريح مسك ، وسمع صوتا فقال : « يا جبريل ما هذه الريح الطيبة الباردة وما هذا المسك وما هذا الصوت ؟ » قال : هذا صوت الجنة تقول يارب ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت غرفى واستترق وحريرى وسندسى وعبقرى ولؤلؤى ومرجانى وفضتى وذهى وأكواى وصحافى وأباريقى وأكوسى وعسلى ومائى ولبنى وخمى . فأتنى بما وعدتنى . فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحا ولم يشرك بى شيئا ، ولم يتخذ من دونى أندادا ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألتنى أعطيته ، ومن أقرضنى جزيته ومن توكل على كفيته ، إني أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين . قالت : قد رضيت .

قال : ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا خبيثة فقال : « ما هذه الريح يا جبريل وما هذا الصوت ؟ » فقال : هذا صوت جهنم تقول يارب : ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت سلاسل وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى وقد بعد قعرى واشتد حرى ، فأئتنى بما وعدتنى ، قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة . وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب . قالت قد رضيت .

قال : ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل فربط فرسه إلى الصخرة ثم دخل فصلى مع الملائكة فلما قضيت الصلاة قالوا يا جبريل من هذا معك ؟ قال : محمد ﷺ قالوا : أوقد أرسل إليه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المحيى جاء .

قال : ثم لقي أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم فقال إبراهيم عليه السلام : الحمد لله الذى اتخذنى خليلا وأعطانى ملكا عظيما وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى وأنقذنى من النار وجعلها على بردا وسلاما .

ثم إن موسى عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى كلمنى تكليما وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى وجعل من أمتى قوما يهدون بالحق وبه يعدلون .

ثم إن داود عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى جعل لى ملكاً عظيماً وعلمنى الزبور وألان لى الحديد وسخر لى الجبال يسبحن والطير وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب .

ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى سخر لى الرياح وسخر لى الشياطين يعملون لى ما شئت من محارب وثمانيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . وعلمنى منطق الطير ،

وآتاني من كل شيء فضلا وسخر لي جنود الشياطين والإنس والطير وفضلني على كثير من عباده المؤمنين ، وآتاني ملكا عظيما لا ينبغي لأحد من بعدى وجعل ملكي ملكا طيبا ليس فيه حساب .

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه عز وجل فقال الحمد لله الذي جعلني كلمته وجعل مثلي كمثلي آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وجعلني أبرء الأكمة والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ورفعني وطهرني وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان علينا سبيل .

قال : ثم إن محمدا ﷺ أثنى على ربه عز وجل فقال : (كلكم أثنى على ربه وإني مثن على ربي فقال : الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل عليّ الفرقان فيه بيان لكل شيء وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس وجعل أمتي أمة وسطا وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون وشرح لي صدري ووضع عني وزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحا وخاتما ، فقال إبراهيم عليه السلام : بهذا فضلكم محمد ﷺ

قال أبو جعفر الرازي خاتم النبوة فاتح بالشفاعة يوم القيامة ... الحديث .

وجاء في هذا الحديث أيضاً : (ثم انتهى إلى السدرة فقيل له هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك . فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من غسل مصفى ، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها ، والورقة منها تغطي الأمة كلها ، قال : فغشيها نور الخلاق عز وجل ، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة ، من حب الرب تبارك وتعالى ، قالوا : فكلمه الله عند ذلك فقال له : سل ، فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلا ، وأعطيته ملكا عظيما ، وكلمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما وألئت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكا وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيت له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرء الأكمة والأبرص ويحيى الموتى بإذنك وأعدته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما سبيل ، فقال له الرب عز وجل : وقد اتخذتك خليلا - وهو مكتوب في التوراة حبيب الرحمن - وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً . وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك . ورفع لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت معي وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمتك أمة وسطا ، وجعلت أمتك هم الأولين والآخرين وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبي ورسولي ، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم ، وجعلت أول البين خلقا وآخرهم بعثا ، وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعا من المثاني لم يعطها نبي قبلك ، وأعطيتك خواتم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام ، والهجرة ، والجهاد ، والصلاة ، والصدقة ، وصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن

المنكر ، وجعلتك فاتحاً خاتماً فقال النبي ﷺ : (فضلني ربي بست : أعطاني فواتح الكلام وخواتيمه وجوامع الحديث ، وأرسلني إلى الناس كافة بشيراً . ونذيراً ، وقذف في قلوب أعدائي الرعب من مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض كلها طهوراً ومسجداً)^(١) .

وبعد : فقد ذكرنا شرحاً وتفصيلاً في معجزتي الإسراء والمعراج كما جاء في كتب التفسير والسنة ، وخلاصة القول أن الإسراء والمعراج معجزتان خارقتان للعادة ، أجراها الله على يدي حبيبه ومصطفاه ﷺ ، وهما في الحقيقة مدرسة نبوية انتظمت دروساً عديدة ومفيدة للحياة ، لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

وقال موسى بن عقبة عن الزهري : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، وكذا قال عروة وقال السدي : بستة عشر شهراً .

والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلي في قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقق فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السموات السبع ، فتلقيه من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مر بموسى الكليم في السادسة ، وإبراهيم الخليل في السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام - أي أقلام القدر ، بما هو كائن .

ورأى سدرة المنتهى وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب ، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة .

ورأى هناك جبريل على صورته وله ستائة جناح ، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية ، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هناك الصلوات خمسين ، ثم خفضها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده ، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها .

ولقد عاد رسول الله ﷺ إلى مكة بغلس .

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس وجاء أنه في السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا لأنه كالضيافة للقدام والله أعلم .

فائدة جلية حسنة :

روى الحافظ إبراهيم الأصفهاني في كتاب دلائل النبوة من طريق محمد بن عمر الواقدي حدثني مالك بن أنى الرجال عن عمر بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظي .

قال : بعث رسول الله ﷺ رحية بن خليفة إلى قيصر فذكر وروده عليه وقدمه إليه ، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ، ثم استدعى من بالشام من التجار فجاء بأبى سفيان بن صخر بن حرب وأصحابه ، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه ، وجعل أبو سفيان يجهد أن يخقر أمره ويصغره عنده .

قال في هذا السياق عن أبى سفيان : والله ما منعني من أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أنى أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها على ولا يصدقني في شيء ، قال حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قال : فقلت أيها الملك ألا أخبرك خيراً تعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ، قال : قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح . قال : وبطريق إيلياء عند رأس قيصر ، فقال نظريق إيلياء : قد علمت تلك الليلة . قال : فنظر إليه قيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم معالجة ، فغلبننا فلم نستطيع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً ، فدعوت إليه النجاجة فنظروا إليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح ، فنظر من أين أتى . قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربوط الذابة ، قال : فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي . وقد صلى الليلة في مسجدنا وذكر تمام الحديث .

فائدة أخرى :

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن رحية في كتابه : (التنوير في مولد السراج المنير) وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد ثم قال :

وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب ، وعلى وابن مسعود ، وأبى ذر ، ومالك ابن صعصعة ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد ، وابن عباس ، وشداد بن أوس ، وأبى بن كعب ، وعبد الرحمن ابن قرط ، وأبى حبة ، وأبى ليل ، الأنصارين وعبد الله بن عمرو ، وجابر ، وحذيفة ، وبريدة ، وأبى أيوب ، وأبى أمامة ، وسمرة بن جندب ، وأبى الحراء ، وصهيب الرومي ، وأم هانئ ، وعائشة ، وأسماء بنتي أبى بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين .

فيهم من ساقه بطوله ، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد ، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة ، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون : ﴿ يريدون ليظفروا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿ (١) .

موسى والتوراة وبنو إسرائيل

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿١﴾
ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴿٣﴾ فَلَمَّا أَجَاء وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ
عِبَادًا أَنَا أُولَىٰ بِأُسْ شَدِيدٌ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدُ أَمْفُوعُولًا ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ
الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٥﴾ إِنَّ أَحْسَنَ أَمْسِنُمْ
لَأَنفُسِكُمْ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَمَّا أَجَاء وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْخَرُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٦﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِن عُذْتُمْ عَدْنَا
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٧﴾

المفردات : ﴿الكتاب﴾ : هو التوراة ، ﴿وكيلاً﴾ : أى كفيلاً تكونون إليه أموركم ،
﴿شكوراً﴾ : أى كثير الشكر ، ﴿وقضينا﴾ : أى أعلمنا بالوحي ، ﴿لتعلن﴾ : أى لتتكبرن عن
طاعة الله ، ﴿والوعد﴾ : أى الموعود به وهو العقاب ، ﴿والبؤس والبأس والبأساء﴾ : الشدة
والمكرهه كما قال الراغب إلا أن البؤس كثر استعماله في الفقر والحرب ، والبأس والبأساء في النكاية
بالعدو ، ﴿جاسوا خلال الديار﴾ : توسطوها وترددوا بينها ، ﴿والكرّة﴾ : الدولة والغلبة ، وأصل
الكر العطف والرجوع ، ﴿النفير﴾ : والنافر من ينفر الرجل من عشيرته وأهل بيته ،
﴿والتبير﴾ : الهلاك وهى كلمة نبطية كما روى من سعيد بن جبير وكل شيء كسرتة وفتنته فقد تبرته ،
﴿ما علوا﴾ : أى ما غلبوا واستولوا عليه من بلادكم ، ﴿والحصير﴾ : السجن كما قال ابن عباس .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه في الآية الأولى أنه أكرم عبده ورسوله بالإسراء من مكة إلى بيت المقدس ،
أردف ذلك ذكر ما أكرم به موسى قبله من إعطائه التوراة ، وجعلها هدى لبني إسرائيل ، ليخرجهم من
الظلمات إلى النور ، ثم قفى على ذلك ببيان أنهم ما عملوا بهديها ، بل أفسدوا في الأرض ، فسلط الله
عليهم البابليين أثخنوا فيهم وقصدوهم بالقتل والنهب والسلب .

ولما تابوا أزال عنهم هذه المحنة ، وأعاد لهم الدولة ، وأمدهم بالأموال والبنين ، وجعلهم أكثر عدداً
مما كانوا ، ثم عادوا إلى عصيانهم وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، فسلط الله عليهم من أزال دولتهم

مرة أخرى ، فأعمل فيهم السيف ، وسلب ونهب ، وجاس خلال ديارهم ، فدخل بيت المقدس كرة أخرى بالقهر والغلبة والإذلال ، وأهلك ما أهلك مما قد جمعه وكنزوه ، ثم أوعدهم على عصيانهم بالعقاب في الآخرة بنار جهنم ، وبس السجن هي لمن عصى الله ، وخالف أوامر دينه .

قوله تعالى : ﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ :

هذان نبيان من أولى العزم ، بعد أن ذكر الله تعالى إسرائ خاتمهم محمد ﷺ ، كثلثة من أولى العزم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ (١)

وفي قوله جل شأنه : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ (٢) .

والكتاب المنزل على موسى هو التوراة التي ورد فيها ذكر محمد ﷺ ، فقد قال الله تعالى له : (د يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وحرزاً للأمين * انت عبدى ورسولى * سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ * ولا سخاب فى الأسواق * ولا يدفع بالسيئة السيئة * ولكن يعفو ويغفر * ولن يقبضه الله إليه حتى يقيم به الملة العوجاء * بأن يقولوا لا إله إلا الله * فيفتح بها أعينا عمياً * وآذانا صماً * وقلوبا غلفاً) (٣) .

وقد قال الله تعالى عن التوراة : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ (٤) الآية .

ولقد جاء القرآن بعد ذلك مصدقاً لما تقدمه من الكتب السابقة ومهيئاً عليها ، وقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حياً ما وسعته إلا اتباعى .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :
صلت عليك ملائكتك الرحمن وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مسزودا بحمى الإله وراية القرآن
إن الله تعالى جعل التوراة هدى ونورا لبني إسرائيل ، ونهاهم عن اتخاذ أولياء من دونه ، وقال لهم :

(١) الآية ٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٣) أخرجه البخارى فى البيوع : ٥٠ ، وفى تفسير سورة : ٤٨ : ٣ . والدارمى فى المقدمة : ٢ ، وفى فضائل القرآن : ١ . والإمام أحمد فى

١٧٤ : ١

(٤) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

يا ذرية من حملنا مع نوح كونوا مثل جدكم الأكبر ، فقد كان عبداً شكوراً ، ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعدكم وإياي فارهبون ﴾ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴾ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴿^(١) .

لكن بني إسرائيل قوم مرنوا على العناد ، فهم شعب صلب الرقبة ، فقد تركوا تعاليم الله فلم يمتثلوا أمره ، ولم يجتنبوا نهيه ، وكان الكثير منهم هكذا قال تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ﴾ :

أى وأوحينا إلى بني إسرائيل فيما أنزلناه في التوراة على موسى ، فأعلمهم به : لتعصن الله ولتخالفن أمره مرتين : أولاهما تغيير التوراة ، وقتل أشعيا عليه السلام ، وحبس إرميا حين أنذرهم سخط الله ، والثانية قتل زكريا ويحيى ، وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ، ولتستكبرن عن طاعة الله ، ولتبغن على الناس ، ولتظلمنهم ظلماً شديداً ، تفرطون فيه وتبلغون أقصى الغاية .

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأساً شديداً فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ﴾ :

أى فإذا جان حلول العقاب الموعود ، أرسلنا عليكم لمؤاخذتكم بجنايتكم عباداً لنا أولى بأساً شديداً في الحروب ، هم سنحاريب ملك بابل وجنوده ، أوغلوا في البلاد ، وترددوا بين الدور والمساكن ، للقتل والسلب والنهب ، وقتلوا علماءكم وكبراءكم ، وأحرقوا التوراة ، وخرّبوا بيت المقدس ، وسبوا منكم عدداً كثيراً ، وكان ذلك وعداً نافذاً لا مرد له .

﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ﴾ :

أى ثم رجعت لكم الدولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا ، حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو ، فغزّوكم البابليين واستنقذتم الأسرى والأموال ، ورجع الملك إليكم ، وكثرت أموالكم بعد أن نهبت وأولادكم بعد أن سبيت ، وصرتم أكثر عدداً ، وأعظم قوة مما كنتم من قبل ، وذلك بفضل طاعته تعالى والإحبات إليه ومن ثم قال :

﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ :

أى وإن أحسنتم فأطعتم الله ولزمت أمره وتركتم نهيه أحسنتم لأنفسكم ، لأنكم تنفعونها بذلك في دنياها وآخرتها ، أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم أذى من أرادكم بسوء ، ويرد كيده في نحره ، ويُؤمّنِي

لكم أموالكم ، ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، وأما في الآخرة فإن الله يثيبكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويرضى عنكم ، ورضوان من الله أكبر .

وإن عصيتكم ربكم وفعلتم ما نهاكم عنه فأبى أنفسكم تسيئون ، لأنكم تسخطونه ، فيسلط عليكم في الدنيا أعداءكم ، ويمكّن منكم من يبغي بكم سوء ، ويلحق بكم في الآخرة العذاب المهين .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما عملوا تتبروا ﴾ :

أى إذا جاء وقت حلول العقاب على المرة الآخرة من مرقى إفسادكم في الأرض ، بعثنا أعداءكم ، ليجعلوا آثار المساءة والبكابة بادية في وجوهكم ، فإن الأعراض النفسية تظهر في الوجوه ، فالفرح يظهر فيها النضارة والإشراق ، والحزن والخوف يظهر فيها الغيرة والقترة ، إذ الوجه شرفة النفس ، وليدخلوا المسجد قاهرين فاتحين مذلّين لكم كما دخلوه أول مرة ، وليهلكوا ما أذخروا وخزنتموه تتبروا شديدا ، فلا يبقون منه شيئا .

قال البيضاوى : سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى ، فعزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ويسمى بيرودس أو فردوس .

والذى أثبتته اليهود في تواريخهم أن الذى أغار عليهم أولاً وخرب بيت المقدس هو بُخْتَنْصَرَّ وكان ذلك في زمن إرميا عليه السلام ، وقد أنذرهم بحجته صريحا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام ، فحبسوه في بئر وجرحوه ، وأن الذى أغار عليهم ثانيا هو أسيانوس قيصر الروم ، وكان بين الإغارتين نحوًا من خمسمائة سنة .

وعلى الجملة فمعرفة من بعث إليهم بأعيانهم وتواريخ البعوث مما لا يتعلق به غرض كبير ، لأن المراد أنه كلما كثرت معاصيهم سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى .

وظاهر الآية يدل على اتحاد المبعوثين أولا وثانيا .

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ :

بعد البعث الثانى ، إن تبتم وازدجرتكم عن المعاصى ، وقد حقق الله لهم وعده ، فكثرت عددهم وأعزهم بعد الذلة ، وجعل منهم الملوك والأنبياء .

﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ :

أى وإن عدتم لمعصيتي وخلاف أمرى وقتل رسلى - عدنا عليكم بالقتل والنسب وإحلال الذل والصغار بكم ، وقد عادوا فعاد الله عليهم بعقابه ، فقد كذبوا النبى ﷺ وهموا بقتله ، فسلطه الله عليهم ، فقتل قريظة ، وأجل بنى النضير ، وضرب الجزية على الباقين ، منهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ، ولا ملك لهم ولا سلطان .

﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ :

قال الحسن : الحصير هو الذى ييسط ويفرش ، والعرب تسمى البساط الصغير حصيراً ، أى أنه تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطاً ومهاداً كما قال ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾^(١) وقال ابن عباس وغيره : جعلناها سجناً محيطاً بهم حابساً لهم ، لا رجاء لهم فى الخلاص منه .
وخلاصة ذلك - إن لهم فى الدنيا ما تقدم وصفه من العذاب ، وفى الآخرة ما يكون محيطاً بهم من عذاب جهنم ، فلا يتخلصون منه أبداً .

الطريق هاهنا

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٣﴾

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به من اصطفاه من النبيين والمرسلين ، فأكرم محمداً ﷺ بالإسراء ، وأكرم موسى بالتوراة ، وجعلها هدى لبنى إسرائيل ، ثم بين أنهم لم يعملوا بها فحل بهم عذاب الدنيا والآخرة ، قفى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وبيان أنه يهدى للصراط المستقيم ، ويشر الصالحين بالأجر والثواب العظيم وينذر الكافرين بالعذاب الأليم .

ثم أردف ذلك بذكر طبيعة الإنسان وأنه خلق عجولاً ، قد يدعو على نفسه بالشر أى بالموت والهلاك ، والدمار واللعنة ، كما يدعو لنفسه بالخير .

القرآن هو كتاب الله الكريم الذى ورد وصفه فى قوله جل شأنه ﴿وإنه لكتاب عزيز * لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾^(٢) .

ويهدى هذا الكتاب للطريق المثلى ، فهو الذى لا تزيع به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تملأ الأتقياء ، ولا تبلى جدته ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، من علم علمه سبق ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

(١) الآية ٤١ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قـيـلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديل
فيه الوعد والوعيد ، والخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، ومكارم الأخلاق ومنهاج السلوك ،
وأصول العقائد وشعائر العبادات وقواعد النظام ومبادئ الأحكام .

يشتر المؤمنين بالأجر العظيم ، فهو روح يحيى الله به الموات ، ونور يبدد به غياهب الظلمات
﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به
من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا
إلى الله تصير الأمور ﴿^(١)

جمع بين نور الوعد ونيران الوعيد ، وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ،
وأوعد الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن لهم عذاباً أليماً ، أى موجعا ومؤلماً ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب
من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ﴾ ولهم مقامع من حديد ﴾ كلما
أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴿^(٢)

قوله تعالى : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾ :

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر ، أى
بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه كما قال تعالى ﴿ ولو يعجل
الله للناس الشر استعجلهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ﴾^(٣) الآية

وقد قال ﷺ : (لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب

فيها ﴾

وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين همّ بالتهوض قائماً قبل أن
تصل الروح إلى رجله ، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه فلما وصلت إلى دماغه عطس ، فقال :
الحمد لله . فقال الله : يرحمك ربك يا آدم . فلما وصلت إلى عينيه فتحهما ، فلما سرت إلى أعضائه
وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه ، فهمّ بالتهوض قبل أن تصل إلى رجله ، فلم يستطع وقال : يارب
عجل قبل الليل .

(١) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

(٢) الآيات ١٩ - ٢٢ من سورة الحج .

(٣) الآية ١١ من سورة يونس .

من آيات الله الكونية

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا
فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَتُهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه الهداية والإرشاد بالقرآن الكريم - قفى على ذلك بالاستدلال بالآيات والدلائل التي في الآفاق ، وهى برهان نير لا ريب فيه ، وطريق بين لا يصل من ينتحيه .

ما أكثر الآيات الدالة على وحدانية الله ، وما أعظم البراهين الساطعة القاطعة التي تصيح بكل عاقل وتنطق بلسان الحال والمقال ، قائلة مصرحة بأجلى بيان : تأمل في الوجود بعين فكر ، واعلم بأن العالم من ارضه إلى سمائه ، ومن عرشه إلى فرشه ، يناديك أنا مخلوق الواحد الديان ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (١)

ومن الآيات التي نلمسها ونعايشها ونحيا فيها الليل والنهار ، فهما آيتان على قدرة الله وعظمته : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار ﴿ (٢)

فالليل آية جعلها الله محموة الضوء ليسكن العباد ويستريحون ، والنهار آية جعلها الله مبصرة ليتقلب الناس فيها سعيا وراء الكسب : ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ (٣)

ولا شك أن هذا كله من رحمة الله بعباده :

فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
جل جلال الله إذ يقول : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴿ (٤)

فتأمل كيف استعمل السمع في آية الليل والبصر في آية النهار ، لا يقوى على ذلك الا خالق القدرة

(٣) الآية ٦٧ من سورة يونس .

(٤) الآيات ٧١ ، ٧٢ من سورة القصص .

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

(٢) الآيات ١٩٠ ، ١٩١ من سورة آل عمران .

والقدر : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (١)
فالنهار وما فيه من حركة سعياء وراء الأرزاق كل ذلك من فضله تعالى على عباده .
ولقد اختلف الليل والنهار ظلمة وضياء لمعرفة عدد السنين والحساب التي بها تتحقق الاسباب في كسب المعيشة .

قال تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات ليعلمون ﴾ إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات ليعلموا ﴿ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ :

أى من شئون الدنيا والآخرة والمعاش والمعاد ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء .

من مشاهد القيامة ومواعظ القرآن

وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٦﴾
أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٧﴾ مَن آهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ
وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٨﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ
فدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٩﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ
جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿٢١﴾ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ كَلَّا نُمَدِّدُهُمْ هُنَا وَهُنَا لَّآءٍ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ
عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢٤﴾

المفردات : ﴿ طائره ﴾ : أى عمله سمي به لأنه طار إليه من عرش الغيب وإما لأنه سبب

الخير والشر كما قالوا : طائر الله لا طائر لك ، أى قدر الله الغالب الذى يأتى بالخير والشر لا طائر لك الذى
تشاء به وتبين به إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونونه زجرا فإن مر بهم من اليسار إلى اليمين

تيمنوا به وسموه سانحاً ، وإن مر من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحاً ، ﴿ كتاباً ﴾ : هو صحيفة عمله ، ﴿ منشوراً ﴾ : أى غير مطوى ، ﴿ حسيباً ﴾ : أى حاسباً أى عادداً له يعد عليه أعماله ، ﴿ والوزر ﴾ : الاثم والذنب يقال منه وزر يزر فهو وازر وهى وازرة أى نفس وازرة ، ﴿ والمترفون ﴾ : هم المنعمون من الملوك والعظماء ، ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ : أى أمرناهم بالطاعة ، ﴿ ففسقوا ﴾ : أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا ، ﴿ فحق عليها القول ﴾ : أى وجب لها العذاب ، ﴿ والتدمير ﴾ الإهلاك مع طمس الأثر ، ﴿ والقرن ﴾ : القوم يجتمعهم زمان واحد ، وقد حدد بأربعين سنة ، وبثانين ، وبمائة ، ﴿ والعاجلة ﴾ : المراد الدنيا ، ﴿ يصلها ﴾ : أى يقاسى حرها ﴿ مدحوراً ﴾ : أى مطروقاً مبعداً من رحمة الله ، ﴿ محظوراً ﴾ : أى ممنوعاً عن يريده .

المناسبة

بعد أن بين سبحانه فيما سلف حال كتابه الذى يحوى النافع والضار من الأعمال مما يكون به سعادة الإنسان وشقاؤه فى دينه ودنياه ، قفى على ذلك بذكر حال كتاب المرء وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا أحصاها ، وأن حسناتها وقبحها تابع لأخذه بما فى الكتاب الأول أو تركه لذلك ، فمن أخذ به اهتدى ومنفعة ذلك عائدة إليه ، ومن أعرض عنه ضل وغوى ووبال ذلك راجع عليه .

ثم أكد عنايته بعباده وأنه لا يعاقب أحداً منهم إلا إذا أرسل الرسل يبلغون رسالات ربهم ، رحمة بهم ورأفة ، واعقب ذلك بأن عذابه إنما يكون بكسب المرء واختياره ، وإن هذا واقع بتقدير الله وعلمه ، وإذا وقعت المعصية حلت العقوبة بعذاب الاستئصال ، كما فعل بكثير من الأمم التى من بعد نوح : كعاد وثمود ، والله عليم بأفعالهم ، وبما يستحقون .

ثم قسم العباد قسمين قسم يحب الحياة الدنيا ويعمل لها ، وعاقبته دار البوار وبئس القرار ، وقسم يعمل للآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن ، وأولئك سعيهم مشكور ، مقبول عند ربهم ، ولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وهؤلاء وهؤلاء يمدهم ربهم بعطائه ، إذ ليس عطائهم بممنوع عن أحد ، ولكن قد فضل بعضهم على بعض فى أرزاق الدنيا ، ومراتب التفاوت فى الآخرة أكثر من درجات التفاوت فى الدنيا وأبعد مدى .

قوله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾
اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً :

هذا إخبار منه تعالى بأن كل إنسان سيلزم بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، قال تعالى :

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾^(١) .

وقال جل شأنه : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾^(٢) .

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ :

وطائره هو ما طار عنه من عمله ، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من خير وشر ، ويلزم به ، ويجازى عليه ، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾^(٤) .

وقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾^(٥) .

وقال : ﴿ إنما تحزون ما كنتم تعملون ﴾^(٦) .

وقال : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾^(٧) .

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً .

قوله تعالى : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ :

أى نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة ، إما بيمينه إن كان سعيداً ، أو بشماله إن كان شقيماً ، منشوراً مفتوحاً يقرؤه هو وغيره ، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره ﴾^(٨) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ :

أى إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت . لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى .

وقوله : ﴿ ألزمناه طائره في عنقه ﴾ : إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه .

قال قتادة عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال : (لا عدوى ولا طيرة وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه) . رواه ابن جرير .

روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال : (ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة : يا ربنا عبدك فلان قد حبسته فيقول الرب

(١) الآية ٢٥ من سورة آل عمران .

(٢) الآيات ١٧ ، ١٨ من سورة ق .

(٣) الآية ١١١ من سورة النحل .

(٤) الآية ١٢٣ من سورة النساء .

(٥) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة الانفاطار .

(٦) الآية ١١١ من سورة النحل .

(٧) الآية ١٣ - ١٥ من سورة القيامة .

(٨) الآية ١٦ من سورة الطور .

(٩) الآية ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

جل جلاله : اختتموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت (١) إسناده جيد .

وقال معمر عن قتادة : ﴿ ألزمناه طائرته في عنقه ﴾ . قال : عمله ، ﴿ ونخرج له يوم القيامة ﴾ قال : نخرج ذلك العمل : ﴿ كتابا يلقيه منشورا ﴾

قال معمر : وتلا الحسن البصري : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ (٢) يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك و وكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك ، فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا اقرأ كتابك ، فقد عدل ، والله من جعلك حسيب نفسك .
هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ :

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ، ﴿ ومن ضل ﴾ : أى عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجنى على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه .

ثم قال : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ : أى لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجنى جان إلا على نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾ (٣)

ولا منافاة بين هذا وبين قوله : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ (٤) وقوله : ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ (٥) ، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ، ولا يحمل عنهم شيء ، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده . وكذا قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ : إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كقوله تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ (٦)

وكذا قوله : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ (٧) .

(١) أخرجه ابن ماجة في الطب : ٥ . والإمام أحمد في ٤ : ١٤٦ ، وفي ٦ : ١٣٨ .
(٢) الآية ١٧ من سورة ق .
(٣) الآية ١٣ من سورة النكبات .
(٤) الآية ٢٥ من سورة النحل .
(٥) الآية ٨ ، ٩ من سورة الملك .
(٦) الآية ٧١ من سورة الزمر .
(٧) الآية ١٨ من سورة فاطر .

وقال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ (١).

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه . ثم بين كيف يقع العذاب بعد بعثه الرسل فقال : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ :

أى إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أى قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصى ، ودنست به أنفسها من الآثام لم نعالجها بالعقوبة ، بل نأمر مترفيها بالطاعة ، فإذا فسقوا عن أمرنا وتمردوا حق عليهم العذاب جزاء وفاقاً ، لا جتراحهم السيئات ، وارتكابهم كبائر الإثم والفواحش ، فدمرنا تلك القرية تدميراً ، ولم نبق منها دياراً ولا نافخ نار .

وخص المترفين بالذكر ، لما جرت به العادة أن من سواهم يكون تبعاً لهم وأن العامة والدماء يقلدونهم فيما يفعلون ، ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبيله .

وقد يكون المراد من الأمر أن الله يفيض عليهم نعمه التى تبطريهم ، وتجعلهم يقعون فى المعاصى ، فكأنه تعالى يأمرهم بها إذ مهد لهم الأسباب الموصلة إليها .

وحكى بعض أئمة اللغة أن المراد (بأمرنا) أكثرنا ، واستدل بما أخرجه أحمد والطبرانى من قوله ﷺ : (خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة) (٢) . أى مهرة كثر نسلها ، وطريق مصطفة من النخل مأبورة (كثر فيها اللقاح) لتثمر الثمر الجنى .

ثم ذكر أن كثيراً من الأمم قد حق عليها العذاب بذنوبها فقال : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ :

أى وقد أهلكنا أمما كثيرة قبلكم من بعد نوح حتى زمانكم حين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله ، وكانوا على مثل ما أنتم عليه من الشرور والآثام ، ولستم بأكرم على الله منهم ، فاحذروا أن يحل بكم من العقاب مثل ما حل بهم ، وينزل بكم سخطه مثل ما نزل بهم .

وفى هذا من الوعيد لمكذبي رسول الله ﷺ من مشركى قريش وتهديدهم بشديد العقاب إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله - ما لا يخفى .

﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خيراً بصيراً ﴾ :

أى وحسبك أيها الرسول بالله خيراً بذنوب خلقه ، فلا يخفى عليه شيء من أفعال مشركى قومك ، ولا أفعال غيرهم ، بل هو عليم بجميع أعمالهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٦٨ .

(١) الآية ٣٧ من سورة فاطر .

ثم قسم سبحانه عباده قسمين محب للعاجلة ومحب لأعمال الآخرة :

(١) ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾

أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغى ، لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً من ربه على ما يعمل ، يعجل الله له فى الدنيا ما يشاء من بسط الرزق وسعة العيش ، ثم يصله حين مقدمه عليه فى الآخرة جهنم مذموماً على قلة شكره ، وسوء صنيعه فيما سلف ، مبعداً من رحمته مطروداً من إنعامه .

وقد اشتمل هذا العقاب على أمور ثلاثة :

(١) الدوام والخلود وإلى ذلك الإشارة بقوله : ﴿ ثم جعلنا له جهنم يصلاها ﴾ : أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه .

(٢) الإهانة والاحتقار وإلى ذلك أشار بقوله ﴿ مذموماً ﴾ .

(٣) البعد والطرده من رحمة الله دائماً فلا يتخلل ذلك راحة ولا يعقبه خلاص وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ مدحوراً ﴾ : وفى قوله : ﴿ لمن نريد ﴾ : إشارة إلى أن الفوز بالدنيا لا يحصل لكل من يريد ، فكثير من الكفار الضلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم هم يبقون محرومين من الدين والدنيا .

وفى هذا تهديد وزجر عظيم لهؤلاء الكفار ، فإنهم قد يتركون الدين لطلب الدنيا وربما فاتتهم أيضاً .

(٢) ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ :

أى من أراد الآخرة ولها عمل وإياها طلب ، فأطاع الله وطلب ما يرضيه وهو مصدق بثوابه وعظيم جزائه على سعيه لها ، شكر الله له جزيل سعيه ، وآتاه حسن المثوبة كفاء ما قدم من صالح العمل ، وتجاوز عن سيئاته ، وأدخله فراديس جناته .

وقد اشترط لهذا الجزاء أموراً ثلاثة :

(١) أن يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل كما قال : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾^(١) وجاء فى الحديث : (إنما الأعمال بالنيات)^(٢) ، إلى أن استنارة القلب بمعرفة الله ومحبه لا تحصل إلا إذا نوى العامل بعمله طاعة ربه ، والإخبات والخشوع له .

(٢) أن يعمل العمل الذى يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات ، لا من الأعمال الباطلة كعبادة الأوثان والكواكب والملائكة .

(١) الآية ٣٩ من سورة النجم .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الوحي : ١ ، وفى العتق : ٦ ، وفى مناقب الأنصار : ٤٥ ، وفى الطلاق : فى الترجمة ، وفى الايمان : ٢٣ ، وفى

الإكراه : (فى ترجمة الكتاب) ، وفى الحيل : ١ . ومسلم فى الإمارة : ١٥٥ ، وأبو داود فى الطلاق : ١١ . والنسائى فى الطهارة :

٥٩ ، وفى الطلاق : ٢٤ ، وفى الايمان : ١٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٢٦ .

(٣) أن يكون ذلك وهو مؤمن فإن أعمال البر لا توجب الثواب إلا إذا وجد الإيمان .
ثم بين سبحانه أن عطاءه ورزقه الدنيوي لا يحظر على كل من الفريقين فقال : ﴿ كلا عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ :

أى إن كلا من الفريقين يريد العاجلة ويريد الآجلة الساعى لها سعيها وهو مؤمن بمده ربه بعطاءه ، ويوسع عليه الرزق ، ويكثر الأولاد وغيرهما من زينة الدنيا ، فإن عطاءه ليس بالمنوع من أحد من خلقه مؤمناً كان أو كافراً ، فكلهم مخلوق فى دار العمل ، فوجب إزالة العذر ورفع العلة ، وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذى يقتضيه صلاحهم ، ثم تختلف أحوال الفريقين ، ففريق العاجلة إلى جهنم وبئس المهاد ، وفريق الآجلة إلى جنات تجري من تحتها الأنهار ، ونعم عقبى الدار .

ثم وضع ما مر من الإمداد ، وعدم محظورية العطاء على أحد ، فقال : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ :

أى انظر إلى عطائنا للفريقين فى الدنيا ، كيف فضلنا بعضهم على بعض ، فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن ، وقبضناه عن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه من كافر آخر . (١)

ولهذا حكم وأسباب بيّنها سبحانه بقوله : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم ﴾ (٢) وقوله : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ (٣) .

﴿ وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ :

أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة . وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم فى الدار الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدرجات السفلى فى جهنم مصفداً بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يكون فى الدرجات العليا فى نعيم وجور ، وكل فريق يتفاوتون فيما بينهم .

ففى الصحيحين (إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى السماء) (٤) .

وفيهما : (إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) (٥) .

(١) هذا الجزء من المعنى غير صحيح فالله تعالى لم يقبض رزقه ولم يمنعه عني أحد كافر أو مؤمناً قال تعالى : (كلا عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً) كما سبق فى السورة الأولى أن يقال : (فسطت رزق على بعضهم وقدرته على آخرين . قال تعالى : فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني) سورة الفجر .

(٢) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٦١ .

(٥) أخرجه الدرهمى فى الرقاق : ٩٨ ، ١٠٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ .

وروى ابن عبد البر عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشي (وكان أحد الأشراف في الجاهلية) وأبو سفيان بن حرب ، ومشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر - وكان يحبهم - فقال أبو سفيان : ما رأيت كالיום قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا . فقال سهيل : وكان أعقلهم : (أيها القوم إني والله قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم إنهم دُعُوا ودُعينا (يعنى إلى الإسلام) فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر فكيف التفاوت ، فى الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكبر) .

وعن بعضهم أنه قال : أيها المباهى بالرفع منك فى مجالس الدنيا أما ترغب فى المباهاة بالرفع فى مجالس الآخرة وهى أكبر وأفضل ؟

إرشادات وتوجيهات

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُومًا ﴿٢٢﴾ * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَزْقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِيئَةً كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا بِالْكَفْلِ إِذَا كُنْتُمْ وَرَثَةً بِالْقِسْطِ أَسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ

خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٥﴾ وَلَا تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٢٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٢٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٩﴾

المفردات : ﴿فقعده﴾ : أى فتصير ، ﴿مذموماً﴾ : أى ممن يستحق الذم من الملائكة والمؤمنين ، ﴿مخدولاً﴾ : أى من الله لأنك أشركت معه ما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، ﴿وقضى﴾ : أى حكم وأمر ، ﴿وأف﴾ : اسم صوت ينبىء عن التضجر والتألم ويقولون لا تقل لفلان أف أى لا تعرض له بنوع من الأذى والمكرهه ، ﴿والنهر﴾ : الزجر بغلظة ، ﴿كريمياً﴾ : أى جميلاً لا شراسة فيه ، قال الراغب : كل شيء يشرف في جنسه يقال إنه كريم ، ﴿واخفض لهما جناح﴾ : يراد به التواضع والتذلل ، ﴿من الرحمة﴾ : أى من فرط رحمتك عليهما ، ﴿والأواب﴾ : الذى دينه الرجوع إلى الله والالتجاء إليه حين الشدة ، ﴿والتبذير﴾ : إنفاق المال فى غير موضعه ، ﴿وإخوان الشياطين﴾ : أى قرنائهم ، ﴿والابتغاء﴾ : الطلب . والرحمة . الرزق ، ﴿والميسور﴾ : السهل اللين ، ﴿والمغلولة﴾ : المقيدة بالغل وهو القيد يوضع فى اليدين والعنق ، ﴿وتبسطها﴾ : أى تتوسع فى الإنفاق ، ﴿والمحسور﴾ : المنقطع عن السير إعياء وكلالاً ، ﴿ويقدر﴾ : أى يقتر ، ﴿والإملاق﴾ : الفقر ، ﴿والخطأ﴾ : كالأثم لفظاً ومعنى ، ﴿والفاحشة﴾ : الفعلة الظاهرة القبح ، ﴿والسلطان﴾ : التسلط والإستيلاء ، ﴿فلا يسرف﴾ : أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه ، ﴿التي هى أحسن﴾ : أى الطريق التى هى أحسن ، ﴿والعهد﴾ : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه وتوكيده ، ﴿والقسطاس﴾ : (بكسر القاف وضمها) الميزان ، ﴿والمستقيم﴾ : العدل ، ﴿والتأويل﴾ : ما يؤل إليه الشيء وهو عاقبته ولا تقف من قفوت أثر فلان : أى اتبعته ، ﴿والمرح﴾ : الفخر والكبر ، ﴿لن تخرق الأرض﴾ : أى لن تجعل فيها طرقاتاً بدوسك وشدة وطأتك ، ﴿والحكمة﴾ : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، ﴿والمدحور﴾ : المبعد من رحمة الله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر جلته قدرته أن الناس فريقان ، فريق يريد بعمله الدنيا فقط وعاقبتهم العذاب والوبال ، وفريق يريد بعمله طاعة الله وهم أهل مرضاته والمستحقون لثوابه ، وقد اشترط لنيلهم ذلك أن يعملوا للآخرة ، وأن يكونوا مؤمنين لا جرم ، فصل الله فى هذه الآية حقيقة الإيمان ، والأعمال التى إذا عملها المؤمن كان ساعياً للآخرة ، وصار من الذين سعد طائرهم ، وحسن حظهم . ثم أعقب ذلك بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ،

وبعدئذ اتبع ذلك بالأمر ببر الوالدين لأنهما السبب الظاهر في وجوده ، وبالأمر بإيتاء ذوى القرى حقوقهم ، ثم بالأمر بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل ، لأن في إصلاحهما إصلاح المجتمع ، والمسلمون كلهم إخوة ، وهم يد على من سواهم .

ثم قفى على ذلك بالنهى عن التبذير لما في القصد من إصلاح حال المرء ، وعدم ارتبائه في معيشته وصلاحه إصلاح للأمة جمعاء ، فما الأمم إلا مجموعة الأفراد ، ففى صلاحهم صلاحها .

ثم علمنا سبيل إنفاق المال على الوجه الذى يرضاه الدين ، ويرشد إلى حسنه العقل .
وبعدئذ نهانا عن قتل الأولاد خشية الفقر ، وبين أن الكفيل بأرزاقهم وأرزاقكم هو ربكم ، فلا وجه للخوف من ذلك .

ثم تلا هذا بالنهى عن الزنا لما فيه من اختلاط الأنساب ، وفقدان النسل أو قتله ، ووقوع الشغب والقتال بين الناس دفاعاً عن العرض .

ثم بالنهى عن القتل لهذا السبب عينه ، ثم بالنهى عن إتلاف مال اليتيم ، ثم بالأمر بالوفاء بالعهد ، وهو العقد الذى يعمل لتوكيد الأمر وتثنيته ، ثم بإفاء الكيل والميزان لما في حسن التعامل بين الناس من توافر المودة والمحبة بينهم ، وهذا ما يرمى إليه الدين لإصلاح شئون الفرد والمجتمع .

ثم بالنهى عن تتبع ما لا علم لك به من قول أو فعل ، فلا تتبع ما كان يعمل الآباء اقتداء بهم كعبادة الأصنام ، ولا تشهد على شيء لم تره ، ولا تكذب . فتقول فى شيء لم تسمعه إنك قد سمعته ولا فى شيء لم تره إنك قد رأيته .

ثم بالنهى عن مشية الخيلاء والمرح ، لما فيهما من الصلف الذى لا يرضاه الله . ولا الناس .
ثم حتم ذلك ببيان أن تلك الأوامر والنواهى هى من وحى الله وتبليغه ، لا من عند نفسه ، أمر بها ونهى عنها ، لأنها أسس سعادة الدارين ، وعليها تبنى العلاقات بين الأفراد والأمم ، على نظم صحيحة لا تكون عرضة للاضطراب ، وفقدان الثقة فى معاملاتهم .

قوله تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً ﴾ :

هذا نهى صريح عن الشرك بالله تعالى ، وما أقبحه من ذنب جسيم ، قال جل شأنه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ ^(١) .
وقال : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ ^(٢) .

(١) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ١١٦ من سورة النساء .

وقال : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ ^(١)

إن من أشرك بالله صار مستحقاً للذم والخذلان ، فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك ؟ لأجيبك بلسان الحال والمقال ، أنا مخلوق للواحد الديان .

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجى	وإلى علاك عنا الجبين الساجد
يا من له عنت الوجوه بأسرها	رهياً وكل الكائنات توحده
ما فى الوجود سواك رب يعبد	كلّ ولا مولى هناك فيقصد
أنت الإله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقرر وتشهد

فإذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً ^(٢) .

روى الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : (من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلاً وإما غنى عاجلاً) ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ﴾ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ^(٤) :

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر ، قال مجاهد : ﴿ وقضى ﴾ : يعنى وصى ، وكذا . قرأ أى بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) . ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين ، فقال : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ : أى وأمر بالوالدين إحساناً ، كقوله فى الآية الأخرى : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ﴾ : أى لا تسمعهما قولاً سيئاً . حتى ولا التأنيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ .

﴿ ولا تنهرهما ﴾ : أى ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبى رباح فى قوله : ﴿ ولا تنهرهما ﴾ : أى لا تنفض يدك عليهما .

(٢) الآيات ٥٨ - ٥٩ من سورة الفرقان

(١) الآية ٣١ من سورة الحج .

(٣) أخرجه أبو داود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى الزهد : ١٨ . والإمام أحمد فى ١ : ٤٠٧ ، ٤٤٢ .

(٤) الآية ١٤ من سورة لقمان .

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح أمره بالقول الحسن والفعل الحسن ، فقال : ﴿ وقُلْ لهما قولاً كريماً ﴾ : أى لينا طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم .

﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ : أى تواضع لهما بفعلك ﴿ وقُلْ رَبِّ ارْحَمهما كما ربياني صغيراً ﴾ : أى فى كبرهما ، وعند وفاتهما .

قال ابن عباس ، ثم أنزل الله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ ^(١) . الآية وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة .

منها الحديث المروى من طرق عن أنس رضى الله عنه : أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال : (آمين . آمين) قيل : يا رسول الله علام أمنت ؟ قال : (أتانى جبريل فقال : يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك ، قل : آمين . فقلت آمين . ثم قال : رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلا الجنة ، قل : آمين . فقلت آمين) ^(٢) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن مالك بن الحارث عن رجل منهم أنه سمع النبي ﷺ يقول : (من ضم يتيماً من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة ألبتة ، ومن أعتق أمراً مسلماً كان فكاكه من النار يجزى بكل عضو منه عضواً منه) ^(٣) .

وعن رسول الله ﷺ : (من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار ، فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز وجل ، ومن ضم يتيماً من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وحببت له الجنة) ^(٤) .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى مالك القشيري قال : قال النبي ﷺ : (من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه) ^(٥) .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : (رغم أنف . ثم رغم أنف ثم رغم أنف . رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عنده الكبر ولم يدخل الجنة) ^(٦) .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلك فلم يغفر له ، ورغم

(١) الآية ١١٣ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٩ ، ١٠ . والترمذى فى الدعوات : ١٠٠ .

(٣) أخرجه ابو داود فى الأدب : ١٢٢ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٤ ، وفى ٥ : ٢٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى العتق : ١ ، وفى الكفارات : ٦ . ومسلم فى العتق : ٢٢ - ٢٥ . وأبو داود فى العتاق : ١٤ . والترمذى فى النذر : ١٤ ، ٢٠ . والنسائى فى الجهاد : ٢٦ . وابن ماجه فى العتق : ٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٩ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٤ ، وفى ٥ : ٢٩ .

(٦) أخرجه مسلم فى البر : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٤٦ .

أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبير فلم يدخله الجنة (١).
وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أنس بن مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله هل بقي على من بر أبوى شيء بعد موتهما أيرهما به قال : (نعم خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لكم إلا من قبلهما فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما) (٢).
وعنه رضى الله عنه بإسناده عن معاوية بن جهم السلمي أن جهمه جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال : (فهل لك من أم ؟) قال : نعم . قال : (فالزمها فإن الجنة عند رجلها) (٣). ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثله هذا القول .
وعنه رضى الله عنه بإسناده عن المقدم بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال : (إن الله يوصيكم بآبائكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب) (٤).

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أشعث بن سليم عن أبيه عن رجل من بني يربوع قال أتيت النبي ﷺ فسمعتة وهو يكلم الناس يقول (يد المعطى العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك) (٥).

روى الحافظ أبو بكر بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبي ﷺ هل أدت حقها قال (لا ولا بزفرة واحدة) .

قوله تعالى : ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ :
إذ هو سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو المطلع على خفايا نفوسكم ، وما فيها من خير وشر ، وبر وعقوق ، وصلة وقطيعة ، وهذا وعد لمن أضر البر بالوالدين وقال لهما قولا كريما ، وخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، كما أنه وعيد لمن أضر السوء لهما وعقهما ونهرهما وتكبر عليهما وعصى أوامرها .

قوله تعالى : ﴿ إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ :

للمفسرين أقوال في الأوابين :

قال قتادة : للمطيعين أهل الصلاة .

(١) أخرجه الترمذى في الدعوات : ١٠٠ . والإمام أحمد في ٢ : ٢٥٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب : ٢ . والإمام أحمد في ٣ : ٣٩٨ .

(٣) أخرجه النسائي في الجهاد : ٦ . والإمام أحمد في ٣ : ٤٩٢ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الأدب : ١ . والإمام أحمد في ٤ : ١٣١ ، ١٣٢ .

(٥) أخرجه مسلم في البر : ٢ . والنسائي في الزكاة : ٥١ . وابن ماجه في الأدب : ١ . والإمام أحمد في ٢ : ٢٢٦ ، وفي ٤ : ٦٥ ، وفي

وعن ابن عباس : المسبحين ، وفي رواية عنه : المطيعين المحسنين .

وقال بعضهم : هم الذين يصلون بين العشاءين .

وقال بعضهم : هم الذين يصلون الضحى .

وعن سعيد بن المسيب قال : الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ويصيبون الذنب ثم يتوبون .

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في الآية هو الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله منها، ووافقه

مجاهد فى ذلك .

وقال عبيد بن عمير : كنا نعد الأبواب الحفيظ أن يقول اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا .

وقال ابن جرير : والأولى فى ذلك قول من قال هو التائب من الذنب الرجاء من المعصية إلى

الطاعة ، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه .

وهذا الذى قاله هو الصواب ، لأن الأبواب مشتق من الأبواب وهو الرجوع ، يقال آب فلان إذا

رجع ، قال تعالى ﴿ إنا إنا إياهم ﴾^(١) وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من

سفر قال : ﴿ آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ﴾ إن المبذرين كانوا

إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا * وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم

قولا ميسورا :

بعد أن بين سبحانه وتعالى حقوق الوالدين ، أمر بصلة الرحم فقال : ﴿ وآت ذا القربى

حقه ﴾ : وقد جاء ترتيبها فى الحديث : (أملك وأباك ثم أدناك أدناك) وفى رواية : (ثم الأقرب

فالأقرب) . وفى الحديث : (من أحب أن ييسر له فى رزقه وينسأ له فى أجله فليصل رحمه)^(٣) .

إن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله

جاء فى الحديث الصحيح :

(إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ،

قال نعم ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت بلى ، قال : فذاك لك)^(٤) . اقرعوا إن

(١) الآية ٢٥ من سورة الفاشية .

(٢) أخرجه البخارى فى العمرة : ١٢ ، وفى الدعوات : ٥٣ . ومسلم فى الحج : ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ . وأبو داود فى الجهاد : ٢ ، ٨٢ ،

١٥٨ . والترمذى فى الحج : ١٠٢ . والدرامى فى الاستئذان : ٥٠ . والإمام مالك فى الحج : ٢٤٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٦ . وفى

٢ : ٥٠ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٥٠ ، وفى ٣ : ١٨٧ ، ١٨٩ ، وفى ٤ : ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى البيوع : ١٣ ، وفى الأدب : ١٢ . ومسلم فى البر : ٢٠ ، ٢١ . وأبو داود فى الزكاة : ٤٥ . والإمام أحمد فى ٣ :

١٥٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٤٧ ، وفى الأدب : ١٣ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى البر : ١٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ،

٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ .

شتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (١).

كذلك أمر الله تعالى بإيتاء المسكين حقه ، والمسكين هو الذي أسكنته الحاجة فأضحى لا يملك شيئاً ، فإذا كان من ذوى القرى كانت الصدقة عليه بأجرين .

قال ﷺ : (الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة) (٢).

فطوى لمن عاشر أهل العلم والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة . طوى لمن شغله عييه عن عيوب الناس . طوى لمن أمسك الفضل من قوله وأنفق الفضل من ماله . طوى لمن وسعته السنة ولم تستهوه البدعة . ورحم الله امرءاً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم .

ومن وصايا الرسول ﷺ لأبى ذر : « أحب المساكين وجالسهم »

وجلّ جلال الحق إذ يقول في وصف الأبرار : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴿ (٣).

كما أوصى تعالى بابن السبيل وهو الغريب الذى انقطعت به السبل حتى كأن السبيل أمه وأبوه ، فالإحسان إليه واجب .

ثم نهى سبحانه عن التبذير فقال : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ :

قال ابن مسعود : التبذير الانفاق في غير حق ، وكذا قال ابن عباس .

وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً .

وقال قتادة : التبذير : النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد .

أى معنى الآية : لا تفرق أيها الإنسان ما أعطاك الله من مال في معصيته تفريقاً بإعطائه من لا يستحقه ، ونحو الآية قوله : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ (٤) .

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف المسجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه إلى أبى قُبَيْس (جبل بمكة) وقال لو أن رجلاً أنفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن من الميسرين ، ولو أنفق درهما واحداً في معصية الله كان من الميسرين .

وأنفق بعضهم نفقة في خير وأكثر فقليل له : لا خير في السرف ، فقال : لا سرف في الخير .

وعن عبد الله بن عمر قال : « مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ ، فقال : ما هذا السرف يا سعد ؟ قال : أو في الوضوء سرف ؟ (قال : نعم وإن كنت على نهر جار) (٥) .

(١) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة محمد .

(٢) الآيات ٨ ، ٩ من سورة الإنسان .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٢٢١ . وابن ماجه في الطهارة : ٤٨ .

(٤) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

وروى أحمد عن أنس بن مالك أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرني كيف أنفق ، وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : (تخرج الزكاة من مالك إن كان ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق البائل والجار والمسكين) ... فقال : يا رسول الله أقلل لي ، قال (فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) فقال : حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : (نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدّها)^(١) .

وعن علي كرم الله وجهه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير ، وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

ثم نبه سبحانه إلى قبح التبذير بإضافته إلى الشياطين فقال :

﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ :

تقول العرب لكل من لازم سنة قوم واتبع أثرهم هو أخوهم ، أى إن المفرقين أموالهم في معاصي الله المنفقيها في غير طاعته . قرناء الشياطين في الدنيا والآخرة كما قال : ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾^(٢) وقال : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾^(٣) أى قرناءهم من الشياطين .

﴿ وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ :

أى وكان الشيطان لنعمة ربه التى أنعم بها عليه جحوداً لا يشكره عليها ، بل يكفرها بترك طاعته ، وركوبه معصيته ، وهكذا إخوانه ، المبذرون أموالهم في معاصي الله ، لا يشكرون الله على نعمه عليهم ، بل يخالفون أمره ولا يستنون سنته ، ويتركون الشكران عليها ويتلقونها بالكفران .

قال الكرخي : وكذلك من رزقه الله جاهاً أو مالا ، فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفوراً لنعمة الله ، لأنه موافق للشيطان في الصفة والفعل . ١ هـ .

وفي ذكر وصف الشيطان بالكفران دون ذكر سائر أوصافه ، بيان لأن المبذر لما صرف نعم الله عليه في غير موضعها فقد كفر بها ولم يشكرها ، كما أن الشيطان كفر بهذه النعم . وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها في التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه ، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ﴾ :

(٣) الآية ٢٢ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٣٦ من سورة الزخرف .

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٣ ، ١٣٦ .

أى وإن أعرضت عن ذوى القرى والمساكين وابن السبيل وأنت تستحى أن تردّ عليهم ، انتظار فرج من الله ترجو أن يأتيك ، ورزق يفيض عليك ، فقل لهم قولاً لينا جميلاً ، وعدّهم وعداً تطيب به قلوبهم .

قال الحسن : أمر أن يقول لهم : نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم شيء ، فإن يأتنا نعرف حقكم . وفى هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبم يردون ؟ قوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً إن ربك يسبط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ :

هذه هى الطريقة المثلى فى الإنفاق . فالإسلام دين الاعتدال فى كل شيء ، لا تهويل ولا تهوين ولا إفراط ولا تفريط ، لا شح ولا تبذير ، لا إسراف ولا تقتير ، لا بخل ولا ترف .

ففى قوله جلّ شأنه ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ : كناية لطيفة عن البخل .

وفى قوله : ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ : كناية عن الإسراف .

ثم رتب على كل منهم ما يناسبه من عواقب : فرتب على البخل فتقعد ملوما ، ورتب على الإسراف محسوراً ، فالملوم هو الذى يستحق اللوم والذم .

والمحسور هو العاجز الذى ضيّع ماله فنزل به الكلل والعى من باب قوله تعالى : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾^(١) .

والاعتدال فى قوله تعالى يصف عباد الرحمن : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾^(٢) .

جاء فى الصحيحين عن أنى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (مثل البخل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما . فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره . وأما البخل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع)^(٣) .

وفى الصحيحين من طريق هشام بن عروة عن زوجته فاطمة بنت المنذر عن جدتها أسماء بنت أبى بكر قالت : قال رسول الله ﷺ : (أنفقى هكذا وهكذا ولا توعى فيوعى الله عليك ، ولا توكى فيوكى الله عليك) . وفى لفظ : (ولا تحصى فيحصى الله عليك)^(٤) .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

(١) الآية ٤ من سورة الملك .

(٣) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٨ ، وفى الجهاد : ٨٩ . ومسلم فى الزكاة : ٧٤ ، ٧٥ . والنسائى فى الزكاة : ٦١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٥ ، ٣٨٩ ، ٥٢٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٢ ، وفى الهبة : ١٥ . ومسلم فى الزكاة : ٨٨ ، ٨٩ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٣٩ ، ١٦٠ ، ٣٤٥ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله قال لى : أنفق أنفق عليك)^(١) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً)^(٢) .

وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة مرفوعاً : (ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً ومن تواضع لله رفعه الله)^(٣) .

وفي حديث أبى كثير عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : (إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة ففقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا)^(٤) .

وروى البيهقى من طريق سعدان بن نصر عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحيى سبعين شيطاناً) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ (ما عال من اقتصد)^(٥) .

وقوله : ﴿ إِنْ رَبِّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ : إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف فى خلقه بما يشاء فيغنى من يشاء ويفقر من يشاء لما له فى ذلك من الحكمة ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ : أى خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر .

كما جاء فى الحديث : (إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه) .

وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجاً والفقر عقوبة عياداً بالله من هذا وهذا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَاً كَبِيراً ﴾ :

أى ولا تقتلوا بناتكم خوف الفقر ، فنحن نرزقهم لأنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم . وقد كان العرب فى جاهليتهم يقتلون البنات ، لعجزهن عن الكسب ، وقدرة البنين

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ ، ٢ ، وفى النفقات : ١ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى الزكاة : ٣٦ ، ٣٧ . وابن ماجه فى الكفارات : ١٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٢ ، ٣١٤ ، ٣٦٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٧ . ومسلم فى الزكاة : ٥٧ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٦ ، ٣٤٧ ، وفى ٥ : ١٩٧ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١٧ .

(٤) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفى ٣ : ٣٢٣ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٤٤٧ .

عليه ، بالغارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفّر الأكفاء عن الرغبة فيهن ، فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأكفاء ، وفي ذلك عار أيما عار عليهم .

والخلاصة - أن الأرزاق بيد الله ، فكما يفتح خزائنه للبنين يفتحها للبنات ، فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال : ﴿ **إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَا كَبِيرًا** ﴾ : أى أن قتلهم كان إثماً فظيعاً لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن سعود قال : « قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو الذى خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن ترائى بحليلة جارك »^(١) .

والخلاصة - إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو سوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى في تخريب العالم ، والأول انتهاك حرمة الله ، والثانى ضد الشفقة على خلق الله ، وكلاهما مذموم غاية الذم .

ولما فى قتل الأولاد حظ من البخل ، وفى الزنا داع من دواعى الإسراف أتبعه فقال سبحانه : ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** ﴾ :

أى أنه كان فعلة ظاهره القبح مشتملة على مفسد كثيرة أهمها :

- (١) اختلاط الأنساب واشتباهاها ، وإذا اشتبه المرء فى الولد الذى أتت به الزانية منه هو أو من غيره ، لا يقوم بتربيته ولا يستمر فى تعهده ، وذلك مما يوجب إضاعة النسل وخراب العالم .
- (٢) فتح باب الهرج والمرج والاضطراب بين الناس دفاعاً عن العرض ، فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا ، حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل (فتش عن المرأة)
- (٣) إن المرأة إذا عرفت بالزنا واشتهرت به استقدرها كل ذى طبع سليم ، فلا تحدث ألفة بينها وبين زوجها ، ولا يتم السكن الذى جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾^(٢) .
- (٤) إنه ليس المقصد من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل وإعداد مهامه من مطعوم ومشروب وملبوس ، وأن تكون حافظة له ، قائمة بشؤون الأولاد والخدم ، وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس وإجمال ذلك - أن الزنا فاحشة وأى فاحشة ، لما فيه من اختلاط الأنساب والتقاتل والتناحر دفاعاً

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٣ ، وسورة ٢٥ : ٢ ، وفى الأدب : ٢٠ ، وفى الديات : ١ ، وفى الحدود : ٢٠ ، وفى التوحيد : ٤٠ . ومسلم فى الإيمان : ١٤١ ، ١٤٢ . وأبو داود فى الطلاق : ٥٠ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ : ١ ، ٢ . والنسائى فى التحريم : ٤ . والإمام أحمد فى : ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، وفى ٦ : ٨ .

(٢) الآية ٢١ من سورة الروم .

عن العرض ، وإنه سبيل سىء من قبل أنه يسوى بين الإنسان والحيوان ، في عدم اختصاص الذكران بالإناث .

وبعد أن نهى سبحانه عن قتل الأولاد للسبب المتقدم نهى عن القتل مطلقا فقال سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا ﴾ :

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ : أى ولا تقتلوا النفس التي حرم الإسلام قتلها إلا قتلا متلبسا بالحق ، وهو أحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمداً ، كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان عن ابن سعود : « لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والشيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »^(١) .

والسبب في هذا التحريم وجوه :

- (١) إنه إفساد حرمة لقوله ﴿ ولا تفسدوا في الأرض ﴾ .
- (٢) إنه ضرر ، والأصل في المضاربة الحرمة لقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾^(٢) وقوله ﷺ (لا ضرر ولا ضرار)^(٣) .
- (٣) إنه إذا أبيح القتل زال هذا النوع من الوجود ففتك القوى بالضعيف ، وحدث الاضطراب في المجتمع ، فلا يستقيم للناس حال ولا ينتظم لهم معاش .

﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل ﴾ :

أى ومن قتل مظلوما بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لمن يلى أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسلطا واستيلاء على القاتل ، بمؤاخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه ، وإما الدية لقوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾^(٤) الآية .

ولقوله ﷺ يوم الفتح : (من قتل قتيلاً فأهله بين خيرتين ، إن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا أخذوا الدية)^(٥) .

﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ :

أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلاً بإزاء واحد ، كما كانوا يفعلون في الجاهلية إذ كانوا يقتلون القاتل ويقتلون معه غيره إذا كان رجلاً شريفاً وأحياناً لا يرضون بقتل القاتل بل يقتلون بدله

(١) أخرجه البخارى في الديات : ٦ . ومسلم في القسامة : ٢٥ ، ٢٦ . وأبو داود في الحدود : ١ . والترمذى في الحدود : ١٥ . وابن ماجة في الحدود : ١ . والدرامى في الحدود : ٢ . والإمام أحمد في ١ : ٣٨٢ ، ٤٢٨ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥ .

(٤) الآية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٥) أخرجه أبو داود في الديات : ٤ . والإمام أحمد في ٦ : ٣٨٥ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ١ : ٣١٣ .

رجلا شريفا ، وفي الآية إحياء إلى أن الأولى للنولى ألا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفى بالدية أو يعفو .
﴿ إنه كان منصورا ﴾ :

أى أن الله نصر الولي بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يبغى ما وراءه ولا يطمع في الزيادة على ذلك . وقد يكون المعنى بتكفير خطاياهم ، وإيجاب النار لقاتله ، هذه الآية أول ما نزل من القرآن في شأن القتل ، لأنها مكية .

وبعد أن نهى عن إتلاف الأنفس نهى سبحانه عن إتلاف الأموال ، لأن المال أخو الروح ، وأحق الناس بالنهى عن إتلاف ماله هو اليتيم لضعفه وكمال عجزه ، ولذلك قال :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ :

أى لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريق التي هي أحسن الطرق ، وهى طريق حفظه وتثمينه بما يزيد به ، حتى تستحكم قوة عقله وشبابه ، وإذ ذاك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فكانوا لا يخالطون اليتامى في طعام ولا غيره ، فأنزل الله تعالى ﴿ وإن تخالطوهم فأخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ ^(١) . فكانت لهم فيها رخصة .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾ ^(٢) .

وبعد أن نهى عن الزنا والقتل وأكل مال اليتيم ، أتبعها بثلاثة أوامر فقال سبحانه : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ . وأوفوا الكيل إذا كلم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا :

(١) ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ : أى وأوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به ، وما عاهدتم الناس عليه من العقود التي تتعاملون بها في البيوع والإجارة ونحوها ، قال الزجاج : كل ما أمر به الله ونهى عنه فهو من العهد ، ويدخل في ذلك ما بين العبد وربّه وما بين العباد بعضهم وبعض .
والوفاء به القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانونى المَرْضَى .

﴿ إن العهد كان مسئولا ﴾ : أى إن الله سائل ناقض العهد عن نقضه إياه ، فيقال للناكث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكث عهدك ؟ وهلا وقيت به ، كما يقال لوائد الموءودة : بأى ذنب قتلت ؟ وقوله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿ آنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين ؟ ﴾ ^(٣) والمخاطبة لعيسى والإنكار على غيره .

(٣) الآية ١١٩ من سورة المائدة .

(١) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٦ من سورة النساء .

(٢) ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ : أى وأتموا الكيل للناس ولا تخسروهم إذا كلتم لهم حقوقهم قبلكم ، فإن كلتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقكم ولم تفوا بالكيل .

(٣) ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ : أى وزنوا بالميزان العدل دون شئ من الجور أو الحيف ، لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاولات والبيع والشراء ، ومن ثم بالغ الشارع فى المنع من التطفيف والنقصان ، سعى فى إبقاء الأموال لأربابها ثم بين عاقبة هذه الأمور وحسن مثالها فقال :

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ : أى إيفاءكم بالعهد ، وإيفاءكم من تكيلون له ، ووزنكم بالعدل لمن توفون له ، خير لكم فى الدنيا من نكتكم وبخسكم فى الكيل والوزن ، لأن ذلك مما يرغب الناس فى معاملتكم ، وحب الثناء عليكم .

﴿ وَأَحْسِن تَأْوِيلًا ﴾ : أى وأجمل عاقبة ، لما يترتب على ذلك من الثواب فى الآخرة والخلاص من العقاب الأليم .

وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة أقبلت عليهم الدنيا ، وحصل لهم الثروة والغنى ، وكان ذلك سبب سعادتهم فيها .

وبعد أن ذكر سبحانه أوامر ثلاثة نهى عن مثلها فقال : ﴿ وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ . ولا تمس فى الأرض مرحا إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ :

(١) ﴿ وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ : أى ولا تتبع أيها المرء ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وذلك دستور شامل لكثير من شؤون الحياة ، ومن ثم قال المفسرون فيه أقوالا كثيرة .

(أ) قال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأيت عيناك ، وسمعت أذنك ووعاه قلبك . (ب) قال قتادة : لا تقل سمعت ولم تسمع ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم . (ج) وقيل المراد النهى عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال سبحانه : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ^(١)

وفى الحديث (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) ^(٢) .

وفى سنن أبى داود (يئس مطية الرجل زعموا) .

إلا ما قام الدليل على جواز العمل به إن لم يوجد دليل من كتاب أو سنة .

كما رخص النبى ﷺ فى ذلك لمعاذ حين بعثه قاضيا فى اليمن إذ قال له (بم تقضى ؟ قال بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله ﷺ ، قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيى) ^(٣) .

(١) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٨ . ومسلم فى البر : ٢٨ . والترمذى فى البر : ٥٦ . والإمام مالك فى حسن الخلق : ١٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٥ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الاقضية : ١١ . والترمذى فى الأحكام : ٣ . والنسائى فى القضاة : ١١ . وابن ماجه فى المناسك : ٣٨ . والدارمى فى المقدمة : ٣٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٧ ، وفى ٥ : ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ .

(د) وقيل المراد نبي المشركين عن اعتقاداتهم تقليدا لأسلافهم واتباعاً للهوى كما قال : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾^(١).

ثم ذكر سبحانه : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولاً ﴾ :

أى أن الله سائل هذه الأعضاء عما فعل صاحبها كما قال سبحانه : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾^(٢).

وفي الخبر عن شطل بن حميد قال : « أتيت النبي ﷺ فقلت يا نبي الله علمني تعويذا أتعوذ به ، فأخذ بيدي ثم قال : قل أعوذ بك من شر سمعي ، وشر بصري ، وشر قلبي ، وشر مني »^(٣) (يريد الزنا)

(٢) ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ : أى ولا تمش متبختراً متمايلاً كمشى الجبارين ، فتحتك الأرض التى لا تقدر على خرقها بدوسك وشدة وطك لها ، وفوقك الجبال التى لا تقدر على الوصول إليها ، فأنت محوط بنوعين من الجماد أنت أضعف منهما والضعيف المحصور لا يليق به التكبر ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكتم تحتها قوم هم منك أرفع
وإن كنت فى عز وحرز ومنعة فكتم مات من قوم هم منك أرفع

وما أجمل ما قاله الحسن البصرى رضى الله عنه : عجب لك يا ابن آدم تتكبر على الله وأنت فى أولك نطفة مزرة وفى آخرك جيفة قدرة ، وأنت بين هذا وذاك تحمل فى بطنك العذرة ، تنتك عرقه ، وتؤذيك بقة وتقتلك شرقة

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر

على صفحات الماء وهو رفيع

ولاتك كالدخان يعلو بنفسه

إلى طبقات الجو وهو وضيع

كيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين ، مرة من صلب أهلك ومرة من رحم أمك

انظر خلاك فإن التبن ثريب
لم يدع الكبر شبان ولا شيب
أقصر فإنك مأكول ومشروب

يا مدعى الكبر إعجاباً بصورته
لو فكر الناس فيما مافى بطونهم
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً

(٢) الآية ٢٤ من سورة النور .

(١) الآية ٢٣ من سورة النجم .

(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٧٤ . والنسائى فى الاستعاذة : ٤ ، ١٠ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٢٩ .

وخلاصة ذلك - تواضع ولا تنكبر ، فإنك مخلوق ضعيف محصور بين حجارة وتراب ، فلا تفعل فعل القوى المقتدر .

ولا يخفى ما في الآية من التقرع والتهكم والزجر لمن اعتاد ذلك ثم علل هذا النهي بقوله : ﴿ **إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا** ﴾ : أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك ، ولن تبلغ الجبال التى هى بعض أجزاء الأرض فى الطول حتى يمكنك أن تنكبر عليها ، فالتكبر إنما يكون بالقوة وعظم الجثة وكلاهما غير موجود لديك . فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر من كل من الجمادين ؟ وكيف يليق بك الكبر ؟

﴿ **كُلْ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** ﴾ : أى كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهي وهى الخمس والعشرون السالفة كان سيئة وهو ما نهى عنه منه ، من الجعل مع الله إلهًا آخر وعبادة غيره ، والتأفف والتبذير ، وغل اليد ، وقتل الأولاد خشية الإملاق - مكروهه عند ربك أى مبغوض عنده وإن كان مراداً له تعالى بالإرادة التكوينية كما قال ﷺ : (ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن)^(١) .

وهذه الإرادة لا تستدعى الرضا منه سبحانه .

وفى وصف هذه الأشياء بالكراهية مع أن أكثرها من الكبائر - إيماء إلى أن الكراهة عنده تعالى تكفى فى وجوب الكف عن ذلك .

ثم بين وجوب امتثال تلك الأوامر ، وترك تلك النواهي فقال : ﴿ **ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ** ﴾^(٢) أى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الحميدة ، ونهيناك عنه من الرذائل مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسرارهِ ، ومن الحكم فى تشريعهِ .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا ﴿ **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ : الآية .

﴿ **وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا** ﴾ :

كرر هذا مع ما سلف ، للتنبيه إلى أن التوحيد رأس الدين ورأس الحكمة ، وهو مبدأ الأمر ومنتهاه ، وقد رتب عليه أولاً آثار الشرك فى الدنيا فقال : ﴿ **فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** ﴾ :

ورتب عليه هنا نتيجة فى العقبى فقال : ﴿ **فَتَقْلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا** ﴾ : أى ملوماً من جهة نفسك ومن جهة غيرك ، ومبعداً من رحمة الله تعالى .

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب : ١٠١ .

(٢) الآية ٣٩ من سورة الإسراء .

التوحيد الخالص

أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ^١ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا^٢ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا^٣ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا^٤ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا^٥ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا^٦ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا^٧

المفردات : ﴿الإصفاء بالشئ﴾ : جعله خالصا له ﴿وصرفنا﴾ : أى بينا ، ﴿ليذكروا﴾ : أى يتدبروا ويتعظوا ، ﴿والنفور﴾ : البعد من الشئ ، ﴿وابتغاء الشئ﴾ : طلبه ، ﴿والسبيل﴾ : الطريق ، ﴿والفقه﴾ : الفهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نبه سبحانه إلى جهل من أثبتوا له شريكا واتخذوا له ندا ونظيرا ، قفى على ذلك بالتنديد والتفريع لمن أثبتوا له ولدا ، وأنه قد بلغ من قبحتهم أن جعلوا البنين لأنفسهم مع علمهم بعجزهم ونقصهم ، وأعطوا الله البنات ، مع علمهم بأنه الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا غاية له .

ثم أتبعه ببيان أنه قد ضرب فى القرآن الأمثال ليتدبروا ويتأملوا فيها ، ولكن ذلك ما زادهم إلا نفورا عن الحق وقلة طمأنينة إليه .

ثم أردفه ببيان أنه لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، لطلبت لأنفسها قربة إلى الله وسبيلا إليه ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وكيف تقربكم إليه وكل ما فى السموات والأرض يسبح بحمده ، بدلالة أحواله على توحيده ، وتقديسه وكمال قدرته ، ولكنكم لجهلكم وغفلتكم لا تدركون دلالة تلك الدلائل .

قوله تعالى : ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما﴾ :

من مساوىء أهل الجاهلية - وما أكثرها - أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، ومن مساوئهم أنهم عبدوهم من دون الله ، ومن مساوئهم أنهم جعلوهم بنات الله ، قال سبحانه مدحضا شبهاتهم : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون﴾^(١) .

﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾^(١) .

وقال جل جلاله : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾^(٢) .

ثم يفند زعمهم هذ ويسفهه فيقول : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾^(٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين * أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين * وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾^(٤) .

وقال تقدست صفاته : ﴿ فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * ما لكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صدقين ﴾^(٥) .

وقال تنزهت عن الشريك ذاته : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾^(٦) .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾^(٧) .

وقال سبحانه ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لها اتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾^(٨) .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾^(٩) .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئا إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾^(١٠) .

وقال تبارك اسمه : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ :

هل خصص الله تعالى البنين لكم واتخذ من الملائكة إناثاً ، وانتم لا تحبون الإناث ، فكيف ترضون

(٥) الآيات ١٤٩ - ١٥٦ من سورة الصافات .

(١) الآية ٢٠ من سورة الزخرف .

(٦) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الكهف . (٩) الآيات ٢٦ - ٢٩ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٥٧ من سورة النحل .

(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة النحل .

(٧) الآية ٤ من سورة الزمر . (١٠) الآيات ٨٨ - ٩٥ من سورة مريم .

(٨) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأنبياء .

(٤) الآيات ١٥ - ١٨ من سورة الزخرف .

لله ما تكرهونه لأنفسكم ؟ أهذا منطق العقل السديد والرأى الرشيد ، إنكم لتقولون قولاً عظيماً .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن لذكروا وما يزيدهم إلا نفورا ﴾ :

يقول تعالى : أى نوعنا فيه بين وعد ووعد وخوف ورجاء وعقيدة وشريعة وخلق ومثل ، لذكروا ويعتبروا ، وما يزيد الظالمين إلا نفورا ، وما يزيد الكافرين إلا كفرا وخسارا .

﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سييلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾ :

وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فيقول لهؤلاء المشركين : لو كان مع الله آلهة أخرى تُعبد كما تقولون وتدعون ، فإن هؤلاء الآلهة المزعومين سيطلبون التقرب إليه تعالى ليعبدوه ، فإذا ثبت ذلك فلماذا لا تعبدونه وحده ، ولماذا الشركاء والشفعاء .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسيحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾^(٣) .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾^(٤) .

وقال ﷺ (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله)^(٥) .

وما أجل قوله جل شأنه : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سيحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾^(٦) .

فسيحان من تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدس عن مشابهة الأغيار صفاته بالبر معروف وبالإحسان موصوف واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة . أول بلا بداية وآخر بلا نهاية سبحانه وتعالى عما يصفون .

﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ :

(٤) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٥) أخرجه الإمام مالك في القرآن : ٣٢ ، وفي الحج : ٢٤٦ .

(٦) الآيات ٩١ ، ٩٢ من سورة المؤمنون .

(١) الآية ٥ من سورة فصلت .

(٢) الآية ١١٣ من سورة طه .

(٣) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة الأنبياء .

قال أبو القاسم الطبراني عن عبد الرحمن بن قرط : أن رسول الله ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان بين المقام وزمزم ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطار به حتى بلغ السموات السبع فلما رجع قال : (سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى ، من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا ، سبحان الأعلى سبحانه وتعالى) .

نعم لو سألت الكون عن عرشه إلى فرشه ومن سبحانه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابه بلسان الحال والمقال أنى مخلوق للواحد القهار ، سبحانه الطير في وكره ، ومجده الوحش في قفره ، ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ (١) .

انظر إلى السماء وارتفاعها والشمس وشعاعها والبحار وأمواجها والأرض واتساعها والجبال ورسوخها وإلى كل ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن الكل يشهد بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلم ذكره ولا يغفل عن شكره .

تأمل فى نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هى الذهب السبيك
على قطب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ : أى وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد

الله .

﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ : أى لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات .

وهذا أشهر القولين كما ثبت فى الصحيح أخرجه البخارى عن ابن مسعود أنه قال « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » (٢) .

وفى حديث أبى ذر (أن النبى ﷺ أخذ فى يده حصيات فسمع لمن تسبيحاً كطينين النحل) . وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم وهو حديث مشهور فى المسانيد .

وقال الإمام أحمد عن ابن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم (اركبوها سالمة ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق قرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله منه) (٣) .

(١) الآية ٢٥ من سورة الروم .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٥ . والبخارى فى المناقب : ٢٥ . والإمام أحمد فى ١ : ٤٦٠ .

(٣) أخرجه الدارمى فى الاستئذان : ٣٩ . وأبو داود فى الجهاد : ٤٤ . والإمام أحمد فى ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، وفى ٤ ، ١٨١ .

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال : « نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : نقيقتها تسبيح »^(١).

وقال قتادة عن عبد الله بن أبي عن عبد الله بن عمرو أن كلمة الرجل إذا قال لا إله إلا الله فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها .

وإذا قال الحمد لله فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها .

وإذا قال الله أكبر فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح .

وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قال أسلم عبدى واستسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ (إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه فقال إني قاص عليكما الوصية أمركم باثنتين وأنها كما عن اثنتين ، أنها كما عن الشرك بالله والكبر ، وأمركما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض وما فيهما لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح ، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتها أو لفصمتها ، وأمركم بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء)^(٢).

﴿ إنه كان حلماً غفوراً ﴾ : أى أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره فإن استمر على كفره وعناده أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين : (إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)^(٣) ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾^(٤).

وقال : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ﴾^(٥) الآيتين .

ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى الله وتاب إليه تاب الله عليه كما قال سبحانه : ﴿ من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾^(٦) وقال ههنا : ﴿ إنه كان حلماً غفوراً ﴾ ، كما قال في آخر فاطر ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حلماً غفوراً ﴾^(٧).

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ٤٥٣ . وابن ماجه في الصيد : ١٠ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٢ ، ١٧٠ ، ٢٢٥ .

(٣) أخرجه البخارى في تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم في البر : ٦٢ . والترمذى في التفسير سورة ١١ : ٢ .

(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود

(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٦) الآية ١٢٣ من سورة النساء .

(٧) الآية ٤١ من سورة فاطر .

حال المشركين عند سماع القرآن

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾
 وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ
 وَحْدَهُ، وَلَوُا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ
 نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
 فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

المفردات : ﴿الحجاب والحجب﴾ : المنع من الوصول إلى الشيء والمراد الحجاب ،
 ﴿والمستور﴾ : أى الساتر كما جاء عكسه من قوله نحو : ﴿ماء دافق﴾ ^(١) أى مدفوق ، ﴿أن
 يفقهون﴾ : أى لئلا يفقهوه ويفهموه ، ﴿والأكِنَّة﴾ : الأغطية واحدها كنان ، ﴿والوقر﴾ :
 الصمم والثقل فى الأذان ، المانع من السماع ، ﴿والنفور﴾ : الانزعاج ، ﴿مسحورا﴾ : أى مخبول
 العقل ، فهو كقولهم (إن هو إلا رجل به جنة) ^(٢) ، ﴿فضلوا﴾ : أى جاروا عن قصد السبيل .

المناسبة وإجمال المعنى

كان الكلام قبل هذا المقام - كمقام الألوهية - وجداهم بالتى هى أحسن ، بضرب الأمثال لهم ،
 وإقامة الحجة عليهم ، وإيضاح السبيل لهم - والكلام هنا فى مقام النبوة والنعى عليهم فى عدم فهمهم
 للقرآن والنفور منه والهزء به ، وضربهم الأمثال للنبي ﷺ وقولهم فيها تارة إنه ساحر وأخرى إنه مجنون
 وحيناً إنه شاعر .

روى ابن عباس أن ابا سفيان والنضر بن الحارث وأبا جهل وغيرهم ، كانوا يجالسون النبي ﷺ
 ويستمعون حديثه ، فقال النضر يوماً ما أدرى ما يقول محمد ، غير أنى أرى شفثيه تتحركان بشيء ، وقال
 أبو سفيان : إني لأرى بعض ما يقول حقاً ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب هو كاهن ، وقال
 و حويطب بنى عبد العزى : هو شاعر فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾
 وجعلنا على قلوبهم أكِنَّة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على
 أدبارهم نفوراً ﴿﴾ :

المراد بالحجاب المستور هو الحجاب الساتر ، لأن هؤلاء الناس لما عطلوا قلوبهم وآذانهم وأبصارهم عن سماع الحق ، وأغلقوا كل منافذ المعرفة ، جازاهم الله بمثل أعمالهم قال سبحانه : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴿^(١)﴾ .

وقال تعالى ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٢) . وقال عز من قائل : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴿^(٣)﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾^(٤) .

وقال تعالى مسجلاً عليهم أقوالهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى نسمع سماع متدبر مستبصر ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾^(٥) .

إن هؤلاء إذا سمعوا القرآن يقرؤه صاحب الرسالة العصماء كان بينهم وبينه حجاب حاجز . أما القلوب فعليها أكنة تمنع من الفقه والفهم ، أما الآذان ففيها وقر فإذا ما سمعوا توحيد الله ولوا على أديبارهم نفورا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يَخْتَلِفُونَ ﴿^(٦)﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نَفُورًا ﴾ : أى انصرفوا ناكسين على أعقابهم ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَفْرَةٌ ﴾ فرت من قسورة ﴿^(٧)﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سيلا :

إن علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور هو الذى يعلم ما يستمعون به القرآن ، ويعلم حالهم حين استماعهم له ، فهم إذ يستمعون يتناجون فيما بينهم ويسرون الحديث قائلين إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً سحرته الجن ، والعجيب أن هذه التهمة الباطلة رُمى بها الأنبياء من أقوامهم ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿^(٨)﴾ .

(٥) الآيات ١٠ ، ١١ من سورة الملك .

(٦) الآيات ٤٥ ، ٤٦ من سورة الزمر .

(٧) الآيات ٥٠ ، ٥١ من سورة المدثر .

(٨) الآيات ٥٢ - ٥٥ من سورة النازيات .

(١) الآيات ٤ ، ٥ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٧ من سورة البقرة .

(٣) الآيات ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة النحل .

(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

فانظر كيف ضربوا الأمثال والأشباه لرسول الله بالسحر ، فضلوا عن سواء السبيل ، فلا يستطيعون أن يسلكوا طريق الحق ، وهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنه ﷺ ما كان مسحوراً ، ولا ساحراً ، ولا مجنوناً ، ولا كاهناً ، ولا كذاباً ، ولا شاعراً ، لكنه الكبير وبطر الحق وغمط الناس .

قال محمد بن إسحق في السيرة حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث (أن أبا سفيان ابن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها قال الأخنس وأنا والذي حلفت به .

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطاوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه قال : فقام عنه الأخنس وتركه) .

الرد على منكري البعث

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْتًا نَّالْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٩﴾ * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٢٠﴾
أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ
إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ
بِحَمْدِهِ وَتَنْظُنُونَ أَنَّ لَكُمْ إِلَهًا قَلِيلًا ﴿٢٢﴾

المفردات : ﴿ الرفات ﴾ : ماتكسر وبلى من كل شيء يكبر في صدوركم : أي يستبعد قبوله للحياة فطركم : أي ذراكم وأوجدكم ، ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ : أي سيحركونها

استهزاء يقال نفخ رأسه ينفض نفضاً إذا تحرك وأنفخ رأسه : حركه كالمتعجب من الشيء ،
﴿ فتستجيون ﴾ : أى تحييون الداعى .

المناسبة وإجمال المعنى

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم الإلهيات والنبوات والبعث والجزاء والقضاء والقدر ، وقد تكلم فيما سلف فى الإلهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، وفندها بما لا مجال للرد عليه ولا لدحضه وتكذيبه .

ثم ذكر فى هذه الآيات شكوكهم فى المعاد والبعث والجزاء ، ويرد عليها بما لو نظر إليه المنصف لأيقن بصدق ما يدعى وألزم نفسه تصديق ما يقال .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ :

أى وقال الذين لا يؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أئذا كنا عظاماً فى قبورنا لم نتحطم ولم نتكسر بعد مماتنا ورفاتاً متكسرة مدقوقة ، أننا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها وقد بلىنا فتكسرت عظامنا وتقطعت أوصالنا ، خلقاً جديداً كما كنا قبل الممات .

ومثل الآية قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ يقولون أننا لمرودودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ قالوا تلك إذا كرة خاسرة ﴿ (١) 》 .

وقوله : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿ (٢) 》 .

وقد أمر الله رسوله أن يحبيهم ويعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاءهم خلقاً جديداً على أى حال كانوا عظاماً ورفاتاً أو حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدورهم فقال :

﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ﴾ :

أى قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يستبعد عندكم قبوله للحياة كالسماوات والأرض والجبال ، فإن الله لا يعجزه إحيائكم لتساوى الأجسام فى قبولها الأعراض المختلفة ، فكيف إذا كنتم عظاماً بالية ، وقد كانت قبل حية ، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد ؟

(١) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة النازعات .

(٢) الآيات ٨٧ ، ٧٩ من سورة يس .

والخلاصة :

إنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله عن الإعادة والإحياء وهذا كما يقول القائل للرجل : اتطمع فيّ وأنا فلان . فيقول : كن ابن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقى .

وجملة المعنى إن في هذا مبالغة أيما مبالغة في قدرة القادر العليم على الإعادة والإحياء كما يقال : لو كنت عين الحياة فالله يميّتك ولو كنت عين الغنى فالله يفقرك .

وبعد أن استبعدوا الإعادة استبعدوا صدورها وهى على هذه الحال حجارة أو حديدًا من أى معيد كما حكى عنهم سبحانه بقوله : ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ﴾ :
أى فسيقولون لك من يعيدنا ونحن على هذه الحال ؟ قل لهم تحقيقاً للحق وإزاحة للاستبعاد وإرشاداً إلى طريق الاستدلال :

الذى يفعل ذلك هو القادر العظيم الذى ذرأكم أول مرة على غير مثال يحتذى ولا منهاج معين ينتحى ، وكنتم تراباً لم يشم رائحة الحياة ، أليس الذى يقدر على ذلك يقدر على أن يفيض الحياة على العظام البالية ويعيدها إلى ما كانت عليه أولاً ؟

بلى إنه سبحانه على كل شئ قدير .

ثم بين جلت قدرته ، ما يفعلون حين سماع هذه الإجابة فقال : ﴿ فسيفضون إليك رءوسهم ﴾ :
قال أبو الهيثم : يقال لمن أخير بشئ فحرك رأسه إنكاراً له : قد أنفض أى إنك إذا قلت لهم ذلك يخرجون رءوسهم استهزاء وتكديباً ثم يسألون :

﴿ ويقولون متى هو ﴾ : أى متى هذا البعث وفى أى وقت وحال يعيدنا خلقاً جديداً كما كنا أول مرة ، ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله .

وفى معنى الآية قوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾^(١)

وقوله : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾^(٢) . ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ :

أى فاحذروا ذلك فإنه قريب منكم سيأتيكم لا محالة ، وكل آت قريب ، وكل ما هو محقق الحصول قريب وإن طال زمانه ، ولم يخبر به أحداً من خلقه لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا ، يكون الخبر قد جاء بقرب حدوثه كما قال الرسول : ﴿ بعثت أنا والساعة كهاتين ﴾^(٣) وأشار بالسبابة والوسطى .

﴿ يوم يدعوكم فتستجيون بحمده ﴾ :

أى ذلك يوم يدعوكم فتستجيون له من قبوركم بقدرته ودعائه إياكم ، والله الحمد فى كل حال ،

(١) الآية ٤٨ من سورة يس .

(٢) الآية ١٨ من سورة الشورى .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٣٩ ، وفى تفسير سورة ٧٩ : ١ . ومسلم فى الجمعة : ٤٣ ، وفى الفتن : ١٣٢ - ١٣٥ . وابن ماجه فى

المقدمة : ٧ . والدارمى فى الرقاق : ٤٦ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٠٩ ، وفى ٥ : ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ .

وهذا كما يقول القائل فعلت هذا بحمد الله والله الحمد على كل ما فعلت .

وروى عن أنس مرفوعاً : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت أو في القبر ولا في الحشر وكأني بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رءوسهم من التراب يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن .

قال تعالى ﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ :

ونحو الآية قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ كم لبثتم في الأرض عدد سنين ﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ ^(٣) .

قال الحسن : المراد تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالأخرة ولم تنزل .

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٤٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٤٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴿٤٥﴾

المفردات : ﴿ ينزع ﴾ : يفسد ويهيج الشر ، ﴿ الوكيل ﴾ : هو المفوض إليه الأمر ،

﴿ الزبور ﴾ : اسم الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام .

المناسبة

بعد أن أقام سبحانه الحجج على إبطال الشرك فقال : قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً وذكر الأدلة على صحة البعث والجزاء فقال : ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ : أمر رسوله أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحاجوا مخالفهم ويجادلوهم باللين ولا يغلظوا لهم في القول ولا يشتموهم ولا يسبوهم فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس وتميل بها إلى الاقتناع كما يعلم ذلك الذين تولوا النصيح والإرشاد من الوعاظ والساسة والزعماء في كل أمة .

(١) الآية ٤٦ من سورة النازعات .

(٢) الآية ٥٥ من سورة الروم .

(٣) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة المؤمنون .

ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ربكم العليم بكم إن شاء عذبكم وإن شاء رحمكم ولا يصرح بأنهم من أهل النار فإن ذلك مما يهيج الشر مع أن الخاتمة مجهولة لا يعلمها إلا الله سبحانه ثم بين لرسوله أن لا يقصر الناس على الإسلام فما عليه إلا البلاغ والإنذار والله هو العليم بمن في السموات والأرض ، فيختار لنبوته من يشاء ممن يراه أهلاً لذلك ، وأولئك الأنبياء ليسوا سواء في مراتب الفضل والكمال ، وأفضلهم محمد ﷺ وأمته .

قوله تعالى : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ﴾ :

أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم : الكلام الأحسن للإقناع مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ ^(١) . وقوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ ^(٢) .

روى أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب ذلك أن رجلاً شتمه فسبه عمر وهم بقتله فكادت تنور فتنة فأنزل الله الآية .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ :

أى إن الشيطان يفسد بين المؤمنين والمشركين ويهيج الشر بينهم ، فينتقل الحال من الكلام إلى الفعل ويقع الشر والمخاصمة ، ومن ثم نهى رسول الله ﷺ أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديده ، فإن الشيطان ينزغ فى يده فرمما أصابه بها .

روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (ولا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار) ^(٣) .

وروى أيضاً عن رجل من بنى سليط قال : أتيت النبی ﷺ وهو فى رفلة (جماعة) من الناس فسمعتة يقول (والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله التقوى ها هنا ووضع يده على صدره) ^(٤) .

ثم بين سبب نزغ الشيطان للإنسان بقوله : ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾ :

أى إن بين الشيطان والإنسان عداوة قديمة مستحكمة كما قال تعالى حكاية عن الشيطان (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) وقال : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين) ^(٥) .

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣١٧ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٦٩ ، وفى ٥ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ،

٣٧٩ ، ٣٨١ . والبخارى فى الإكراه : ٧ . ومسلم فى البر : ٣٢ . والترمذى فى البر : ١٨ .

ثم فسر سبحانه التي هي أحسن بما علمهم النصفة بقوله : ﴿ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾ :

أى ربكم أيها القوم هو العليم بكم إن يشأ يرحمكم بتوفيقكم للإيمان والعمل الصالح يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان فتموتوا على شرككم ، وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ولا أن يقطعوا بأنهم من أهل النار ويعيروهم بذلك فإن العاقبة مجهولة ولا يعلم الغيب إلا الله إلى أن ذلك مما يجز إلى توليد الضغينة في النفوس بلا فائدة ولا داع يدعو إليها .

ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ليكون من دونه أسوة له فقال : ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلًا ﴾ :

أى وما أرسلناك أيها الرسول حفيظاً ورقياً تقسر الناس على ما يرضى الله وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً ، فدارهم ولا تغلظ عليهم ومر أصحابك بذلك فإن ذلك هو الذى يؤثر في القلوب ويستهوئ الأفتدة .

ثم انتقل من علمه تعالى بهم إلى علمه بجميع خلقه فقال : ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ : وبأحوالهم الظاهرة والباطنة فيختار منهم لنبوته والفق في دينه من يراه أهلاً لذلك ويفضل بعضهم على بعض لإحاطة علمه وواسع قدرته ، ونحو الآية قوله : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ ^(١) .

وفي هذا رد عليهم حين قالوا : يبعد كل البعد أن يكون يتيماً ابن أبى طالب نبياً وأن يكون أولئك الجوعى العراة كصهيب وبلال وخباب وغيرهم صحابة دون الأكابر والصناديد من قريش .

وفي ذكر من في السموات رد لمقاتلهم حين قالوا ﴿ لولا نزل علينا الملائكة ﴾ .

وفي ذكر من في الأرض رد لمقاتلهم حين قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ^(٢) .

﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ :

بما لهم من الفضائل النفسية والمزايا القدسية وإنزال الكتب السماوية ، فخصصنا كلا منهم بفضيلة وميزة فضلنا إبراهيم باتخاذه خليلًا ، وموسى بالكليم ، ومحمدًا بالقرآن الذى أعجز البشر ، والإسراء والمعراج .

ونحو الآية قوله : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ ^(٣) .

(١) الآية ١٤ من سورة الملك .

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

ولا خلاف في أن أولى العزم منهم وهم الخمسة الذين ذكروا في سورة الشورى في قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾^(١)

أفضل من بقيتهم ولا خلاف في أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .
﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ :

أي إن تفضيل داود لم يكن بالملك بل كان بما آتاه الله من الكتاب وأفرده بالذكر لأنه كتب في الزبور إن محمداً خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم كما قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد ﷺ وأمته .

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَءَاثِنَا ثُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

المفردات : ﴿ الزعم ﴾ : (بثليث الزاى) القول المشكوك في صدقه وقد يستعمل بمعنى

الكذب . حتى قال ابن عباس : كل موضع في كتاب الله ورد فيه (زعم) فهو كذب ، ﴿ لا يملكون ﴾ : أى لا يستطيعون ، ﴿ كشف الضر ﴾ : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم ، ﴿ يدعون ﴾ : أى ينادون ، ﴿ الوسيلة ﴾ : القرب بالطاعة والعبادة ، ﴿ محذورا ﴾ : أى يحذره ويحترس منه كل أحد ، ﴿ في الكتاب ﴾ : أى في اللوح المحفوظ ، ﴿ الآيات ﴾ : ما اقترحته قریش من جعل الصفا ذهابا ، ﴿ ومبصرة ﴾ : أى ذات بضيرة لمن يتأملها ويتفكر فيها ، ﴿ ظلّموا بها ﴾ : أى فكفروا بها وجحدوا ، ﴿ أحاط بالناس ﴾ : أى أحاطت بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا ، ﴿ والرؤيا ﴾ : هى ما عاينه ﷺ ليلة أسرى به من العجائب ، ﴿ والشجرة ﴾ : هى شجرة الزقوم ، ﴿ والطغيان ﴾ : تجاوز الحد في الفجور والضلال .

المناسبة

هذه الآيات عود على بدء في تسفيه آراء المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة والجن والمسيح وعزيراً ، إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يتتبعون إلى ربهم الوسيلة ويخافون عذابه ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فادعوني وحدي ، لأني أنا المالك لنفعمكم وضررهم .

ثم بين أن قرى الكافرين صائرة إما إلى الفناء والهلاك بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الأموال ، وأخذ الجزية .
ثم أردف ذلك ببيان أنه ما منعه من إرسال الآيات التي طلب مثلها الأولون كقولهم : (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً)^(١) .

إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا لأصابهم عذاب الاستئصال ، كما أصاب من قبلهم ، أو لم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كذبوا بآيات ربهم وعقروا الناقة .

ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه وأنه سينصره ويؤيده .
ثم أتبع ذلك بأن أمر الإسرائء كان فتنه للناس وامتحاناً لإيمانهم كما كان ذكر شجرة الزقوم في قوله : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾^(٢) .

ثم تلا هذا بذكر تماديهم في العناد وأنه كلما خوفهم وأنذرهم ، ازدادوا تمادياً وطغياناً ، فلو أنزل عليهم الآيات التي اقترحوها لم ينتفعوا بها ، ومن ثم أجل عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم .

قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ :

أى قل أيها الرسول لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه ، حين ينزل الضر بكم من فقر ومرض ونحوها ، وانظروا هل يقدرון على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ، إنهم لا يقدرون على دفع شيء من ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

روى أنه لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ أنزل الله هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ :

أى هؤلاء الذين يدعوه المشركون أرباباً وينادونهم لكشف الضر عنهم ، يطلبون مجتهدين إلى ربهم ومالك أمرهم القرب إليه بالطاعة والقربة .

(١) الآية ٩٠ من سورة الإسرائء .

(٢) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الدخان .

أخرج الترمذى عن أئى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (سلوا الله لى الوسيلة قالوا وما الوسيلة ؟ قال القرب من الله ثم قرأ هذه الآية) (١) .

﴿ أئهم أقرب ﴾ :

أى إن أقرب أولئك المعبودين إلى الله يدعوهُ يبتغى إليه الوسيلة والقرب منه .
وإذا كان العجز عن كشف الضر عنكم والافتقار إلى ربكم شأن أعلاهم وأدناهم فكيف تعبدونهم ؟

﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ :

أى ويرجون بفعلهم للطاعة رحمته ويخافون بمخالفة أمره عذابه .
ثم ذكر العلة فى خوفهم من العذاب فقال : ﴿ إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ : أى إن عذابه حقيق بأن يحذره كل أحد من الملائكة والأنبياء فضلا عن سواهم .
ثم ذكر مآل الدنيا وأهلها فقال : ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا ﴾ :

أى وما من قرية من القرى التى ظلم أهلها بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ومبيدوهم بالاستئصال قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء من قتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب ، بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال سبحانه عن الأمم الماضية : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ (٣) وقال : ﴿ وكأئن من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾ (٤) .

﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ :

أى كان ذلك مثبتا فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ .

عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فقال ما أكتب قال اكتب المقدر وما هو كائن إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى .
وكان كفار قريش يقولون يا محمد : إنك تزعم إنه كان قبلك أنبياء منهم من سُخِّرَ له الرج ، ومنهم من كان يحبى الموتى ، فإن سرك أن تؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ :

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٦٥ .

(٢) الآية ١١٨ من سورة النحل .

(٣) الآية ٥ من سورة الطلاق .

(٤) الآية ٨ من سورة الطلاق .

أى إنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم لاستحقوا عذاب الاستئصال ، كما هو سنتنا في الأمم السالفة ، لكن هذا العذاب على هذه الأمة لا يكون ، لأن الله يعلم أن فيهم من سيؤمنون أو يؤمن أولادهم فلم يجبهم إلى ما طلبوا ، ولم يظهر لهم تلك المعجزات .

والخلاصة :

إنه ما منعنا من إرسال الآية التي سألوها إلا تكذيب الأولين بمثلها فإن أرسلنا الآيات وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله في عباده .

روى احمد عن ابن عباس قال : « سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهاباً وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا فقبل له إن شئت أن نستأني بهم وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوها فإن كفروا هلكوا كما أهلكك من قبلهم من الأمم قال بل نستأني بهم »^(١) وأنزل الله ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ :

وأخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال : « قال الناس لرسول الله ﷺ : لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون فقال رسول الله ﷺ إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم فإن عصيتم هلكتم فقالوا لا نريدها » .

ثم بين أن الآيات التي التمسوها هي مثل آية ثمود وقد أوتوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب فكيف يتمنى مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح كما قال : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾^(٢) .

أى وقد سألت ثمود من قبل قومك الآيات فآتيناهما ما سألت وجعلنا لها الناقة حجة واضحة دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها فكفروا بها ومنعوها شر بها وقتلوهافأبادهم الله وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ :

أى إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون فيراجعوا .

ذكر المؤرخون أن الكوفة رُجفت (زلزلت) في عهد ابن مسعود فقال : أيها الناس إن ربكم يستعيبكم فاعتبوه .

وروى إن المدينة زلزلت في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر : أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن .

(١) أخرجه الإمام أحمد في ١ : ٢٥٨ .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .

وفي الحديث الصحيح (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله يخوف بهما عباده فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره) ثم قال : يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً^(١) .

ثم قال سبحانه محرضاً رسوله على إبلاغ رسالته ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس .

﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ :

أى واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك هو القادر على عباده ، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبة ، فلا يقدرّون على أمر إلا بقضائه وقدره ، وقد عصمك من أعدائك فلا يقدرّون على إيصال الأذى إليك كما قال : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾^(٢) .

والخلاصة : إن الله ناصرك ومؤيدك حتى تبلغ رسالته وتظهر دينه .

قال الحسن : حال بينهم وبين أن يقتلوه ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ وإذ يكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾^(٣) .

﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك إلا فتنة للناس ﴾ :

أى وما جعلنا الرؤيا التى أرىنا ليلة الإسراء إلا امتحاناً واختباراً للناس ، فأنكرها قوم وكذبوا بها ، وكفر كثير ممن كان قد آمن به ، وازداد المخلصون إيماناً .

روى البخارى فى التفسير عن ابن عباس إنها رؤيا عين أرىها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء .

وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وقتادة والعرب تقول رأيت بعينى رؤية ورؤيا . ﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ :

أى وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس ، فإنهم حين سمعوا : ﴿ إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم ﴾^(٤) اختلفوا فقوم ازدادوا إيماناً ، وقوم ازدادوا كفراً كلّى جهل إذ قال : إن ابن أبى كبشة (يعنى النّبى ﷺ) توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تنبت شجرة وتعلمون ان النار تحرق الشجر . قال عبد الله بن الزبيرى : أن محمداً يخوفنا بالزقوم ، وما الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقّموا منه وجعل يأكل من هذا بهذا .

(١) أخرجه البخارى فى اللباس : ٢ ، وفى الكسوف : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٦ - ٦ . ومسلم فى الكسوف : ١ - ٣ ، ٦ ، ١٠ . وأبو داود فى الاستقصاء : ٣ ، ٤ ، ١١ . والنسائى فى الكسوف : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . وابن ماجه فى المقدمة : ٢٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٩٨ . وفى ٢ : ١٠٩ ، ١١٨ .

(٢) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

(٤) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الدخان .

وقد فات هؤلاء أن في الدنيا أشياء كثيرة لا تحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخرى لا تؤثر فيه النار ، بل هو يزداد إذا لامسها نظافة ، ومن ثم يلبسه رجال المطافئ في الدول المتمدينة .

وكم في الأرض من عجائب ، وكم في العوالم الأخرى من مثلها ، فالأرض مملوءة نارا وما خلص من النار إلا قشرتها التي نعيش عليها ، وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية فنحو ^٨ — منه اكسوجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع أيدروجين ، فأرضنا نار ، وماؤنا نار ، وأشجارنا مليئة بالنار ، وهذا العالم الذي نسكنه تتخلله النار .

والخلاصة :

إن هؤلاء المشركين فُتِنُوا بالرؤيا وفتنوا بالشجرة ، وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها للعن الكفار الذين يأكلونها توسعا في الاستعمال ، وهو كثير في كلام العرب .

﴿ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ﴾ :

أى ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فما يزيدهم التخويف إلا تماديا في الطغيان والضللال ، فلو أننا أنزلنا عليهم الآيات التي اقترحوها لم يزدادوا بها إلا تمردا وعنادا واستكبارا في الأرض ، وفعل بهم ما فعل بأمثالهم من الأمم الغابرة من عذاب الاستئصال ، لكن قد سبقت كلمتنا بتأخير العذاب عنهم إلى حلول الطاقة الكبرى .

والكلام مسوق لتسليته ﷺ على ما عسى أن يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة ، لمخالفتها للحكمة من الحزن لظعن الكفار ، إذ ربما يقولون لو كنت رسولا حقاً لأتيت بمثل هذه المعجزات التي أتى بها من قبلك الأنبياء .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ؕ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كَرَّمْتُ عَلَىٰ لَيْنٍ أُخْرَتْنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْنَكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ۖ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿١٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَظَّتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأُجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكِ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٥﴾

المفردات : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ : أى أخبرنى هذا الذى كرمت على : أى هذا الذى كرمته على . قاله احتقاراً واستغفاراً لشأنه ، ﴿ لَأُحْنَكَنَّ ﴾ : من قولهم حنك الدابة واحتنكها : إذا جعل في

حنكها الأسفل حبلاً يقودها به كأنه يملكها كما يملك الفارس فرسه بلجامه ، ﴿ اذهب ﴾ : أى أمض
لشأنك فقد خلّيتك وما سولت لك نفسك ، ﴿ موفوراً ﴾ : أى مكماً لا يدخر منه شيء من قولهم وفر
لصاحبك غرضه فرة : أى أكمله له قال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

ويقال أفره الخوف واستنزفه : أى ازعجه واستخفه ، ﴿ بصوتك ﴾ : أى بدعائك إلى معصية الله ،
﴿ واجلب عليهم ﴾ : أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ويقال أجلب على العدو إجلاًباً إذا جمع
عليه الخيول (والخيول هنا الفرسان) كما جاء فى قوله ﷺ فى بعض غزواته لأصحابه : (يا خيل الله
أركبى)^(١) ، ﴿ والرجل ﴾ : واحده راجل كركب وراكب ، ﴿ والغرور ﴾ : تزوين الباطل بما يظن
انه حق ، ﴿ والوكيل ﴾ : الحافظ والرقب .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه أن الرسول ﷺ كان فى محنة من قومه إذ كذبوه وتوعدوه حين حدثهم
بالإسراء وشجرة الزقوم ، وأنهم نازعوه وعاندوه واقترحوا عليه الآيات حسداً على ما آتاه الله من النبوة ،
وكبراً عن أن ينقادوا إلى الحق .

بين أن هذا ليس ببديع من قومك ، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمانهم مثل ما لاقيت ، الا
ترى أن آدم عليه السلام كان فى محنة شديدة من إبليس ، وأن الكبر والحسد هما اللذان حملاه على الخروج
من الإيمان ، والدخول فى الكفر ، والحسد بلية قديمة ، ومحنة عظيمة للخلق .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لن خلقت
طيناً ﴾

ذكر سبحانه قصص آدم فى سبع سور : البقرة . الأعراف . الحجر . الإسراء . الكهف . طه .
ص .

وفى هذا المقام يخبر ربنا تبارك وتعالى نبيه ومصطفاه فيقول : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾
أى اذكر وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، فقد منعه الحسد والكبر أن
يمثل أمر الله فتكبر على آدم .

قال تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١) وقال : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^(٢) . وقال ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٣) .

ماذا قال إبليس لربه : ﴿قَالَ أَأَسْجِدُ لِمَنْ خَلَقْتَنِي طِينًا﴾ .

وكان في هذا الموقف يجعل من العناصر مقاييس يقيس بها القيم والمثل ، ونسى أن العناصر لا قيمة لها في هذا المقام . فالإنسان حيث ثبت لحيث ينبت ، وحيث يوجد ، لا حيث يولد .
الناس من جهة التصوير أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم في أصلهم شرف يتفاخرون به فالطين والماء

إن الميزان العدل والقسطا المستقيم الذي وزن به الحكم العدل هو التقوى فلم يقل تعالى إن أكرمكم عند الله أقوام ولا أغناكم ، إنما قال : ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٤) فالتقوى هي السلاح الأقوى :

ثم قال إبليس بعد ذلك لرب العزة : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخُوَّنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكُنْ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ :

كلمة قالها على سبيل التعجب : أى أخبرني أهذا الذى كرمته على وأنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، لن أخترتنى إلى يوم القيامة لأحتوين ذريته بالضلال والإغواء ، و ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين^(٥) .

لكنه استثنى القليل من ذرية آدم . قال تعالى : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٦) . فماذا قال له مولانا ؟

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ :

وهذا كقوله تعالى : ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ * لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين^(٧) .

وهنا يقول له ربنا ﴿اذْهَبْ﴾ : أى امض لشأنك فالحق واضح ، والطريق لائح والمنادى صائح ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ بمخالفة أمرى وسلك طريق الغواية فلأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين .
وهى جزاؤكم لإغوائك لهم ، واتباعهم لك جزاءاً موفوراً .

(٥) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعراف .

(٦) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة ص .

(٧) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة ص .

(١) الآية ٣٤ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٣١ من سورة الحجر .

(٣) الآية ٥٠ من سورة الكهف .

(٤) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

لقد حذر الله أبناء آدم من هذا الذئب فهو أشد علينا من ذئب الغنم ، قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾ (٢) .

وقال تبارك اسمه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (٣) .

قال له رب العزة : ﴿ واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ .

قال ابن عباس في قوله ﴿ واستفز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال : كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل .

وقال مجاهد : باللهو والغناء أى استخفهم بذلك .

وقال قتادة - اختاره ابن جرير - في قوله تعالى ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ : يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ، ومعناه : تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه وهذا أمر قدرى كقوله تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾ (٤) أى ترعجهم إلى المعاصي إزعاجا ، وتسوقهم إليها سوقا .

وقال ابن عباس ومجاهد في قوله : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ قال : كل راكب وماش في معصية الله .

وقال قتادة : إن له خيلا ورجالا من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه تقول العرب : أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ :

قال ابن عباس ومجاهد : هو ما أمرهم به من انفاق الأموال في معاصي الله تعالى .

وقال عطاء : هو الربا .

وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام .

(٣) الآية ٦ - من سورة فاطر

(٤) الآية ٨٣ - من سورة مريم

(١) الآيتان : ٦٠ ، ٦٣ من سورة يس

(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة

وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما : أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ماحرموه من أنعامهم يعنى من البحائر والسوائب ونحوها .

وقال ابن جرير : والأولى أن يقال إن الآية تعم ذلك كله .

وقوله : ﴿ والأولاد ﴾ قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك : يعنى أولاد الزنا .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم .

وقال قتادة عن الحسن البصرى : قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصنغوا غير صبغة الإسلام وجزعوا من أموالهم جزءا للشيطان .

وقال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله في غير الدين الذى ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله ، أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به . أو فيه ، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ، ذلك الولد له أو منه ، لأن الله لم يخص بقتوله ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ فكل ماعصى الله فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة .

فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل : [إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم] (١) .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال : باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدا » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وعدهم ﴾ من يستخفهم ويغريهم من المواعيد الباطلة ، كوعدهم بأن لاجنة ولانار ، أو بأن الآلهة تشفع لهم ، أو بالكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، مع ما ثبت من قوله ﷺ : « يا فاطمة بنت محمد سليني من مالى ماشئت لا أغنى عنك من الله شيئا » (٣) .

أو بالتسويق في التوبة ، أو بإيثار العاجل على الآجل أو نحو ذلك .

وخلاصة ذلك : إنه يغويهم بأن لا ضرر من فعل هذه المعاصي ، فإنه لاجنة ولانار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، وإنما سبيل اللذة والسرور ، ولا حياة للإنسان إلا بها فتفويتها غبن وخسران ، وينفرهم من

(١) أخرجه مسلم في الجنة : ٦١٣ . والإمام أحمد في ٤ : ١٦٢ .

(٢) أخرجه البخارى في بدء الخلق : ١١ ، وفي الوضوء : ٨ وفي النكاح : ٦٦ ، وفي الدعوات : ٥٥ . ومسلم في الطلاق : ٦ . وأبو داود في النكاح : ٤٥ . والترمذى في النكاح : ٦ . وابن ماجه في النكاح : ٢٧ . والفرامى في النكاح : ٢٩ . والإمام أحمد في ١ : ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٤٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ .

(٣) أخرجه البرامى في الرقاق : ٢٣ .

الطاعة بأن لا فائدة فيها ، إذ لارجعة بعد هذه الحياة ، فهي عبث محض ، فهذه بعض تلبيسات الشيطان وهذه خدعة .

قوله تعالى : ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ : لأنه لا يغنى عنهم من عقاب الله شيئا إذا نزل بهم ، فمواعيده خدعة يزيناها لهم ويلبسها ثوب الحق ، كما قال إبليس إذ حصحص الحق يوم يقضى ربك بالحق : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ﴾ (١).

ثم نفى الله تعالى سلطان الشيطان عن عباده المخلصين فقال : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكىلا ﴾

وذلك كقوله جلّ شأنه : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ (٢).

فسبحانك اللهم شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا ، قطرة من فيض وجودك تملأ الأرض رِيًّا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا .

يارب حبك فى دمي وكىانى نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

قوله تعالى : ﴿ وكفى بربك وكىلا ﴾ :

فنعم المولى ونعم النصير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وكفى بربك هاديا ونصيرا ، وكفى به شهيدا ، وحسبنا ، وكفىلا .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن لينضى شياطينه كما ينضى أحدكم بغيره فى السفر » (٣) ينضى أى يأخذ بناصيته ويقهره .

(١) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .

(٢) الآيات ٩٩ ، ١٠٠ من سورة النحل .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٨٠ .

نداء الفطرة

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا
تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ
فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ
وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

المفردات : ﴿ يزجي ﴾ : أى يسوق حيناً بعد حين ، والمراد أنه يجريه ﴿ وفصله ﴾ : هو
رزقه . والمراد ﴿ بالضر ﴾ : خوف الفرق بتقاذف الأمواج ، ﴿ وضل ﴾ : غاب عن ذكركم ،
﴿ والخسف ﴾ : والخسوف : دخول الشئ فى الشئ ؛ يقال عين خاسفة إذا غابت حدقتها فى الرأس ،
وعين من الماء خاسفة : أى غائرة الماء وخسفت الشمس : أى احتجبت ، وكأنها غارت فى السحاب
﴿ والحاصب ﴾ : الريح التى ترمى بالحصباء والحجارة ﴿ والقاصف ﴾ : الريح تقصف الشجر
وتكسره . ﴿ والتبع ﴾ : النصير والمعين . ﴿ وحملته على فرس ﴾ : أى أعطيته إياها ليركبها .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى موقف إبليس من آدم وكيف حسده وتكبر عليه وأبى السجود له ،
وبيّن ما يكيد به للبشر بصوته وخيله ورجله ومشاركته إياهم فى الأموال والأولاد ، ووعدهم بالأمانى
والخداع . بيّن سبحانه أن من رحمته التى وسعت كل شئ أنه نفى سلطانه عن عباده المؤمنين .

وبيّن أن من صور رحمته بهم أيضاً ، أنه هو الذى يسوق لهم الفلك فى البحر ليتبتغوا من فضله ،
فتسير حياتهم برا وبحرا سيرا لهم فيه مايقوم بمعاشهم .

قال تعالى : ﴿ ربكم الذى يزجي لكم الفلك فى البحر ليتبتغوا من فضله إنه كان بكم
رحيماً ﴾ :

وهذا كما قال جلّ شأنه : ﴿ وترى الفلك فى مواخر ليتبتغوا من فضله ولعكم تشكرون ﴾ ^(١) .

والبحر خلق عظيم الداخلى فيه مفقود والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، وقد بيّن
الله تعالى حال قوم إذا مسهم الضر فى البحر نسوا كل معبود سوى الله ، فلما كشف الله عنهم الضر

أعرضوا عن الله وتولوا عن وحدانيته . قال عزّ من قائل : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مِّنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَّاهَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ :

لما ذهب عكرمة بن أبي جهل فارا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هاربا فركب في البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعو الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك على عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد فلاجدنه رؤوفا رحيمًا ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضى الله عنه وأرضاه .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ : أى نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر ، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ أى سجيته هذا ينسى النعم ويحجدها إلا من عصم الله .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِين بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغِيكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

وكما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٢).

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمْنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ :

يا من أعرضتم عن توحيد الله وكفرتكم به بعد أن نجاكم إلى البر هل أمنتُم من في السماء أن يخسف بكم جانب البر ، أو أن يرسل عليكم حاصبا من حجارة ، ثم إنكم لن تجدوا وكيلا غيره تكلون إليه أمركم .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣).

ثم هل أمنتُم بعد نجاتكم من الغرق أن يعيدكم الله في البحر مرة أخرى ، ويرسل عليكم ريحا عاصفا فيغرقكم بما كفرتُم ، إنه إن فعل بكم ذلك لن تجدوا لكم ناصرا من دون الله ، ولن تجدوا لكم تبيعا .

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

(٢) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .

قال جل شأنه : ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ :

إن عليكم كما عرفتم الله في الشدة فدعوتوه وحده أن تعرفوه في الرخاء فتثبتوا على توحيده ، فهو الذى يحيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وهو الذى أسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ^(١).

ومن مظاهر نعمه سبحانه عليكم يا بنى آدم أنه كرمكم وحملكم في البر والبحر ورزقكم من الطيبات ، وفضلكم على كثير من خلقه ، فشكر المنعم واجب .

قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ :

ياخالق الكون في عز وتمكين وكل أمر جرى بالكاف والنون
يامن لطف بحالى قبل تكويني لاتجعل النار يوم الحشر تكويني

﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ ^(٢).

إن من مظاهر تكريم الله تعالى لابن آدم أنه خلقه على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ ^(٣).

فهو يمشى قائما منتصبا على رجليه ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا يفقه بذلك كله وينتفع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية ، وحملناهم في البر أى على الدواب من الأنعام والخيول والبغال وفي البحر أيضا على السفن الكبار والصغار ، ورزقناهم من الطيبات أى من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يضعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ، وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا ، أى من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم قال : (قالت الملائكة يا ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا الآخرة . فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان) .

(٣) الآية ٤ من سورة التين .

(١) الآية ٣٤ من سورة ابراهيم .

(٢) الآية ١٩ من سورة النحل .

وقد روى ابن عساكر بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : (إن الملائكة قالوا : ربنا خلقتنا وخلقنا بنى آدم ، وجعلتهم يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ويلبسون الثياب ، ويتزوجون النساء ، ويركبون الدواب ، ينامون ويستريحون ، ولم تجعل لنا من ذلك شيئا ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة . فقال الله عز وجل : لا أجعل من خلقتهم بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان) .

وقال الطبراني بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : (ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم) قيل يا رسول الله ولا الملائكة . قال : (ولا الملائكة . الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر) .

من مشاهد القيامة وتوجيهات إلهية

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوِي كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَا أَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَبِزَةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنْ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

المفردات : ﴿ إمامهم ﴾ : أى كتابهم فهو كقوله : ﴿ وكل شيء أحصيناه فى إمام ﴾

مين ﴿١﴾ : ﴿الفتيل﴾ : الخيط المستطيل في شق النواة وبه يضرب المثل في الشيء الحقير التافه ومثله النقيير والقطمير . ﴿أعمى﴾ : أى اعمى البصيرة عن حجة الله والركون إلى الشيء : الميل إلى ركن منه ﴿ضعف الحياة﴾ : أى عذابا مضاعفا في الحياة الدنيا . ﴿ضعف الممات﴾ : أى عذابا مضاعفا في الممات في القبر وبعد البعث . ﴿ونضيرا﴾ : أى معينا يدفع عنك العذاب . ﴿لا يلبثون﴾ : أى لا يقون ﴿خلافك﴾ : أى بعدك ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ : أى سننا بك سنه الرسل قبلك ﴿تحويلا﴾ : أى تغييرا . ﴿دلوك الشمس﴾ : زوالها عن دائرة نصف النهار ﴿الغسق﴾ : شدة الظلمة . ﴿وقرآن الفجر﴾ : أى صلاة الصبح أو القرآن الذى يتلى فجراً . ﴿كان مشهودا﴾ : أى تشهد شواهد القدرة وروائع الحكمة وبهجة العالم العلوى والسفلى ؛ فمن ظلام حالك ازالة ضوء ساطع ونور باهر ومن نوم وخمود إلى يقظة وحركة وسعى إلى الأرزاق .

سبحان الواحد الخلاق وهل هناك منظر أجمل في نظر الرأى من ظهور ذلك النور ينفلت من خلال الظلام الدامى يدفعه بقوة ليضىء العالم بجماله ويقظة النوم وحركتهم على ظهر البسيطة ، وقد كانوا في سكون ، فهى حياة متجددة بعد موت وغيبوبة للحواس . ﴿التهجد﴾ : الاستيقاظ من النوم للصلاة ﴿نافلة﴾ : أى صلاة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة عليك . ﴿المقام المحمود﴾ : مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه ﷺ . ﴿السلطان﴾ : الحجة البينة . ﴿والنصير﴾ : الناصر والمعين . ﴿زهق﴾ : أى زال واضمحل . ﴿نأى بجانبه﴾ : أى لوى عطفه عن الطاعة وولاها ظهره . ﴿وشاكلته﴾ : أى مذهب وطريقه التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال . ﴿ويثوسا﴾ : أى شديد اليأس والقنوط من رحمة الله . ﴿وأهدى سبيلا﴾ : أى أسد طريقا وأقوم منهاجا .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال بنى آدم في الدنيا ، وذكر أنه أكرمهم على كثير من خلقه ، وفضلهم عليهم تفضيلا ، فصل في هذه الآيات تفاوت أحوالهم في الآخرة مع شرح أحوال السعداء ، ثم أردفه مايجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال ، والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتليس ،

ثم قفى على ذلك ببيان أن سنته قد جرت بان الأمم التى تلجىء رسلها إلى الخروج من أرضها ، لا بد أن يصيبها الوبال والنكال ،

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى كيد الكفار واستفزازهم لرسول الله ﷺ ، ليخرجوه من أرضه ، وسلاه بما سلاه به أمره بالإقبال على ربه بعبادته لينصره عليهم ولا يبالي بسعيهم ولا يلتفت إليهم ، فإنه سبحانه يدفع مكرهم وشرهم ، ويجعل يده فوق أيديهم ، ودينه عاليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود .

ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا ، لأنه كلما نزلت عليه آية ازدادوا بها كفرا وعتوا . قوله تعالى :

﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه يمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون شيئا ﴾ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴿ :

قال مجاهد وقتاده : أى بنبيهم

وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط ﴾ (١) .

وقال بعض السلف : هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث ، لأن إمامهم النبي ﷺ .

وقال ابن زيد : بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير :

عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ :

أى بكتاب أعمالهم . وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾ (٣)

ويحتمل إن المراد بإمامهم أى كل قوم بمن ياتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ (٤) .

وفي الصحيحين (لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من كان يعبد الطواغيت الطواغيت) (٥) . الحديث .

وقال تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (٦) .

وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته ، فإنه لا بد أن يكون شاهدا على أمته بأعمالها ، كقوله تعالى : ﴿ وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ﴾ (٧) .

(١) الآية ٤٧ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٢ من سورة يس .

(٣) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

(٤) الآية ٤١ من سورة القصص .

(٥) الآية أخرجه البخارى في التوحيد : ٢٤ ، وفي الرقاق : ٥٢ . ومسلم في الإيمان : ٢٩٩ . والامام أحمد في ٢ : ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٥٣٤ .

(٦) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الجاثية .

(٧) الآية ٧٠ من سورة الزمر .

وقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ (١).

ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال ولهذا قال تعالى : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه يمينه فأولئك يقرءون كتابهم ﴾ .

أى من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته ، كقوله : ﴿ فأما من أوتى كتابه يمينه ﴾ فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ﴿ إلى قوله تعالى : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون فتىلا ﴾ الفتيل هو الخيط المستطيل فى شق النواة .

روى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قول الله تعالى : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ قال : (يدعى أحدهم فيعطى كتابه يمينه ويمد له فى جسمه ويبض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلأأ ، فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد فيقولون : اللهم أتنا بهذا ، وبارك لنا فى هذا . فيأتهم فيقول لهم : أشيروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا . وأما الكافر فيسود وجهه ، ويمد له فى جسمه ، ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا ، أو من شر هذا ، اللهم لاتأتنا به . فيأتهم فيقولون : اللهم أخزه . فيقول : أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا) .

وقوله تعالى : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى ﴾ : قال ابن عباس ومجاهد وقتاده وابن زيد : ﴿ ومن كان فى هذه ﴾ أى فى الحياة الدنيا ﴿ أعمى ﴾ أى عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿ فهو فى الآخرة أعمى ﴾ أى كذلك يكون .

﴿ وأضل سبيلا ﴾ : أى وأضل منه كما كان فى الدنيا عياداً بالله من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ﴾ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴿ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً ﴾ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ .

يخبر تعالى عن تأييده ، لرسوله صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيتة وعصمته وسلامته من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظهره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه فى مشارق الأرض ومغاربها .

قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ :

(١) الآية ٤١ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٩ — ٢٥ من سورة الحاقة .

نزلت في كفار قريش هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً ، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصفا حتى جمعهم الله وإياه بيدٍ على غير ميعة ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم ، ولهذا قال تعالى ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ .

أى وهكذا عادتنا في اللذين كفروا برسلنا ، وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم ، يأتيهم العذاب ، ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الرحمة لجاؤهم من النقم في الدنيا مالا قبل لأحد به . ولهذا قال تعالى : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ ومن الليل فتعبد به نافلة لك عسى أن يعثك ربك مقاماً محموداً .

عن جابر بن عبد الله قال : (دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبي ﷺ فقال : أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس) (٢) .

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس .

فمن قوله : ﴿لدلوك الشمس إلى غسق الليل﴾ وهو ظلامه ، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وقوله : ﴿وقرآن الفجر﴾ يعنى صلاة الفجر ، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفاً عن سلف ، وقرنا بعد قرن .

﴿إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ : قال الأعمش عن إبراهيم ، عن ابن مسعود وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنهما : عن النبي ﷺ في هذه الآية ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ قال : تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال (فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر) (٣) .

يقول أبو هريرة : اقرعوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ .

(١) الآية ٣٣ من سورة الأنفال .

(٢) الآية أخرجه الدرামী في المقدمة : ٧ . وابن ماجه في الإقامة : ١٤٨ . والإمام أحمد في ٣ : ٣٩٨ ، وفي ٤ : ٣٤٨ .

(٣) أخرجه البخارى في الأذان : ٣١ ، وفي الصلاة : ٨٧ ، وفي تفسير سورة ١٧ : ١٠ . والترمذى في الصلاة : ٤٧ . والدرامى في الصلاة : ٥٦ . والإمام أحمد في ١ : ٣٧٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦٥ ، وفي ٢ : ١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٥٠١ ، ٥٢٠ .

قال الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ قال : (تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار)^(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

وفي لفظ في الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون . وقال عبد الله بن سعود يجتمع الحرسان في صلاة الفجر فيصعد هؤلاء ويقم هؤلاء)^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ : هذا أمر بقيام الليل بعد أن أمره تعالى بأداء المكتوبة .

وقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه سئل أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال (صلاة الليل)^(٣) ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل فإن التهجد ما كان بعد نوم .

وقوله تعالى : ﴿نافلة لك﴾ : قيل أنه مخصوص بوجوب - وحده ، فجعلوا قيام الليل واجبا في حقه دون الأمة ، رواه العوفي عن ابن عباس وهو أحد قولى العلماء ، وأحد قولى الشافعى رحمه الله . وقيل إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ، لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التى عليه .

قال الفقهاء في قيام الليل

١ - فضله :

أمر الله به نبيه ﷺ ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ :
١ - وهذا الأمر وإن كان خاصا برسول الله ﷺ إلا أنه عامة المسلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالاعتداء به ﷺ .

٢ - يبين ان المحافظين على قيامه هم المحسنون المستحقون لخيرته ورحمته ، فقال : ﴿إن المتقين في

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ١٧ : ٥٥ وابن ماجه في الصلاة : ٢ ، وفي الجنايز : ٦٥ ، والإمام أحمد في ٢ : ٤٧٤ .

(٢) أخرجه البخارى في المواقيت : ١٦ ، وفي بدء الخلق : ٦ ، وفي التوحيد : ٢٣ ، ٣٣ ، ومسلم في المساجد : ٢١٠ ، والنسائى في الصلاة : ٢١ ، والإمام

مالك في السفر : ٨٢ ، والإمام أحمد في ٢٥٧ : ٣١٢ ، ٤٨٦ .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام : ٢٠٣ ، والإمام أحمد في ٢ : ٣٠٣ ، ٣٢٩ .

جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴿١﴾ .

٣ — ومدحهم وأثنى عليهم ونظمهم في جملة عبادة الأبرار فقال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ (١) .

٤ — وشهد لهم بالإيمان بآياته فقال ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ولما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

٥ — ونفى التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم فقال : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ (٣) .

هذا بعض ماجاء في كتاب الله ، أما ماجاء في سنة رسول الله ﷺ فهناك بعضه :

١ — قال عبد الله بن سلام ! أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت ممن جاءه ، فلما تأملت وجهه استبته ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب قال : فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : (يأيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام) (٤) . رواه الحاكم وأبو ماجه والترمذى وقال حسن صحيح .

٢ — وقال سلمان الفارسي ! قال رسول الله ﷺ (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ، ومنهارة عن الإثم ، ومطرودة للداء عن الجسد) (٥) .

٣ — وقال سهل بن سعد ! جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : (يا محمد عش ماشئت فإنك ميت ، وأعمل ماشئت فإنك مجزى به ، وأحب من شئت فإنك مفارقه ، وأعلم أن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس) .

٤ — وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : (ثلاثة يحبه الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم : الذى إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فأما أن يقتل وإما أن ينصره الله عز وجل

(١) الآيات ١٥-١٨ من سورة الذاريات .

(٢) الآيتان ٦٣ ، ٦٤ من سورة الفرقان .

(٣) أخرجه الترمذى في الأطعمة : ٤٥ ، وفي القيامة : ٥٦ . وابن ماجه في المقدمة : ٩ ، وفي الأدب : ١١ . والإمام أحمد في ١ :

١٦٥ ، ١٦٧ .

(٤) أخرجه الترمذى في الدعوات : ١٠١ .

(٣) الآيات ١٥-١٧ من سورة السجدة .

(٤) الآية ٩ من سورة الزمر .

ويكفيه ، فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ، والذي له إمراة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل فيقول : يذر شهوته ويذكرنى ، ولو شاء رقد ، والذي إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر فى ضراء وسراء) .

٢ - آدابه :

يسن لمن أراد قيام الليل ما يأتى :

١ - أن ينوى عند نومه قيام الليل . فعن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال : (من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم فيصلى من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له مانوى ، وكان نومه صدقة عليه من ربه) (١) . رواه النسائى وابن ماجه بسند صحيح .

٢ - أن يمسح النوم عن وجهه عند الاستيقاظ ، ويتسوك ، وينظر إلى السماء ، ثم يدعو بما جاء عن رسول الله ﷺ فيقول : (لا إله إلا أنت سبحانك ، أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا . وإليه النشور) (٢) . ثم يقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ (٣) إلى آخر السورة . ثم يقول : اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فىهن ، ولك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فىهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فأغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت الله لا إله إلا أنت (٤) .

٣ - ثم يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين ثم يصلى بعدهما ماشاء فعن عائشة قالت : (كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلى افتتاح صلاته بركعتين خفيفتين) (٥) .

(١) أخرجه أبو داود فى لطوع : ٢٠ . والنسائى فى الليل : ٦١ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ١٣ ، وفى الدعوات : ٧ ، ١٥ . ومسلم فى الذكر : ٥٩ . وابن ماجه فى الدعاء : ١٦ . والدارمى فى الاستئذان : ٥٣ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، وفى ٥ : ١٥٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧ .

(٣) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران .

(٤) أخرجه البخارى فى التهجد : ١ . ومسلم فى المسافرين : ١٩٩ ، ٢٠١ . وأبو داود فى الصلاة : ١١٩ . والنسائى فى التطبيق : ١٣ ، ١٤ ، ٧-٦٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٠ ، ١٨٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٩٥ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ .

(٥) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٩٧ ، ٢٠٠ . والإمام أحمد فى ٦ : ٣٠ .

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين)^(١) رواهما مسلم .

٤ - أن يوقظ أهله ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : (رحم الله أمرا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح في وجهها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء)^(٢) .

وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال (إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا أو صلى ركعتين جميعا كتب في الذاكركم والذاكرات)^(٣) رواهما أبو دواد وغيره بإسناد صحيح .

وعن أم سلمة أن النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال : (سبحان الله ، ماذا أنزل الليلة من الفتنة ، ماذا أنزل من الخزائن من يوقظ صواحب الحجرات ، يارب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة رواه البخارى . عن علي أن رسول الله ﷺ طرده وفاطمة فقال : ألا تصلبان ؟ قال : فقلت : يا رسول الله أنفсна بيد الله . فإن شاء أن يعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ثم سمعته وهو يضرب فخذه وهو يقول : (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً)^(٤) . متفق عليه .

٥ - أن يترك الصلاة ويرقد إذا غلبه النعاس حتى يذهب عنه النوم فعن عائشة أن النبي ﷺ قال : (إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضجع)^(٥) رواه مسلم .

وقال أنس : (دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين فقال : ماهذا ؟ قالوا : لزينب تصلى ، إذا كسلت أو فترت أمسكت به ؟ فقال : حُلوه ، ليصل أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر فليرقد)^(٦) متفق عليه .

٦ - أن لا يشق على نفسه بل يقوم من الليل بقدر ماتسع له طاقته ويواظب عليه ولا يتركه إلا لضرورة . فعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : (خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا)^(٧) . رواه البخارى ومسلم .

(١) أخرجه مسلم في المسافرين : ١٩٨ . والإمام أحمد في ٢ : ٣٩٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في التطوع : ١٨ ، وفي الوتر : ١٣ . والنسائي في قيام الليل : ٥ . والإمام أحمد في ٢ : ٢٥٠ ، ٤٣٦ .

(٣) أخرجه البخارى في ليلة القدر : ٥ . ومسلم في الاعتكاف : ٧ . وأبو داود في التطوع : ١٨ ، وفي الوتر : ١٣ . والنسائي في قيام الليل : ٥ ، ١٧ . وابن ماجه في الإقامة : ١٧٥ . والإمام مالك في صلاة الليل : ٥ . والإمام أحمد في ١ : ١٣٢ ، وفي ٢ : ٢٥٠ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في ٦ : ٢٩٧ .

(٥) أخرجه مسلم في المسافرين : ٢٢٣ . وأبو داود في التطوع : ١٨ . وابن ماجه في الإقامة : ١٨٤ . والإمام أحمد في ٢ : ٣١٨ .

(٦) أخرجه البخارى في التهجد : ١٨ . وابن ماجه في الإقامة : ١٨٤ .

(٧) أخرجه البخارى في الرقاق : ١٨ . ومسلم في المسافرين : ٢١٥ ، ٢٢٠ . والترمذى في القبلة : ١٣ . وابن ماجه في زهد : ٢٨ .

والإمام أحمد في ٢ : ٢٣١ ، ٣٥٠ ، ٤٩٦ ، وفي ٦ : ٤٠ ، ٦١ ، ٨٤ .

وروي عنها أن رسول الله ﷺ : سئل أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : (أدومه وإن قل)^(١).

وروى مسلم عنها قالت : (كان عمل رسول الله ﷺ ديمة . وكان إذا عمل عملاً أثبتته)^(٢).

وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل)^(٣). متفق عليه

وروي عن ابن مسعود قال : (ذكر عند النبي ﷺ رجل نام حتى أصبح قال : ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه - أو قال في أذنه)^(٤).

وروي عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أن النبي ﷺ قال لأبيه : (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل . قال سالم ، فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً) .

٣ - وقته :

صلاة الليل تجوز في أول الليل ووسطه وآخره مادامت الصلاة بعد صلاة الغشاء . قال أنس رضي الله عنه في وصف صلاة رسول الله ﷺ : (ما كنا نشاء أن نراه من الليل مصلياً إلا رأيناه ، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه ، وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئاً ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئاً)^(٥). رواه أحمد والبخاري والنسائي .

قال الحافظ : لم يكن لهجهده ﷺ وقت معين بل بحسب ما ييسر له القيام .

٤ - أفضل أوقاتها :

ولكن الأفضل تأخيرها إلى الثلث الأخير !

١ - فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا

(١) أخرجه البخاري في الإيمان : ٣٢ ، وفي الصوم : ٥٢ . ومسلم في المسافرين : ١٣٩ ، ٢٢١ ، والنسائي في قيام الليل : ١٧ والإمام أحمد في ٦ : ٥١ ، ٥٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم : ٦٤ ، وفي الرقاق : ١٨ . ومسلم في المسافرين : ٢١٧ . وأبو داود في التطوع : ٢٧ . والإمام أحمد في ٤ : ١٠٩ ، وفي ٦ : ٤٣ ، ٥٥ ، ١٧٤ ، ١٨٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الإقامة : ١٧٤ . والإمام أحمد في ٢ : ١٧٠ .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد : ١٣ . ومسلم في المسافرين : ٢٠٥ . والنسائي في قيام الليل : ٥ . وابن ماجه في الإقامة : ١٧٤ والإمام أحمد في ١ : ٣٧٥ ، ٤٢٧ ، وفي ٢ : ٢٦٠ ، ٤٢٧ .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد : ١١ .

حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له (١) زواه الجماعة .

٢ - وعن عمرو بن عبسة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : (أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل الأخير فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن) رواه الحاكم قال : على شرط مسلم ، والترمذى وقال : حسن صحيح .

٣ - وقال أبو مسلم لأبي ذر : أى قيام الليل أفضل ؟ قال سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال : (جوف الليل الغابر ، وقليل فاعله) (٢) . رواه أحمد بإسناد جيد .

٤ - وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : (أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً) (٣) رواه الجماعة إلا الترمذى .

٥ - عدد ركعاته :

ليس لصلاة الليل عدد مخصوص ، ولاحد معين ، فهي تتحقق ولو بركة الوتر بعد صلاة العشاء .

١ - فعن سُمرة بن جندب رضى الله عنه قال : (أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلى من الليل ماقل أو كثر . ونجعل آخر ذلك وتراً) . رواه الطبرانى والبخارى .

٢ - وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ قال : (صلاة في مسجدي تعدل بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة ، والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفي ألف صلاة ، وأكثر من ذلك كله الركعتان يصلحهما العبد في جوف الليل) . رواه أبو الشيخ وابن حبان في كتابه « الثواب » وسكت عنه الخنذرى في « الترغيب والترهيب » .

٣ - وعن إياس بن معاوية المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا بد من صلاة بليل ولو حلب شاة ، وما كان بعد صلاة العشاء فهو من الليل) . رواه الطبرانى ورواته ثقات إلا محمد ابن اسحق .

(١) أخرجه البخارى في التهجد : ١٤ ، وفي الدعوات : ١٤ . ومسلم في المسافرين : ١٦٨ ، ١٦٩ . وأبو داود في التطوع : ٢١ . والترمذى في المواقيت : ٢١ . وابن ماجه في الإقامة : ١٨٢ . والإمام أحمد في : ٢ : ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٤١٩ .

(٢) أخرجه الترمذى في الايمان : ٨ ، وفي الدعوات : ٧٨ ، ١١٨ . والنسائى في المواقيت : ٣٥ ، ٤ . وابن ماجه في الإقامة : ١٤٨ ، ١٨٢ .

(٣) أخرجه البخارى في الصوم : ٥٦ ، وفي الأنبياء : ٣٧ . ومسلم في الصيام : ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠١ . وأبو داود في الصوم : ٥٣ . والنسائى في الصيام : ٧٥ ، ٧٦ . وابن ماجه في الصيام : ٣١ . والإمام أحمد في : ٢ : ١٥٨ .

٤ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (ذكرت قيام الليل فقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ قال : (نصفه) ثلثه ، ربعة فواق حلب ناقة ، فواق حلب شاة) .

٥ - وروى عنه أيضا قال : (أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ورغب فيها حتى قال : « عليكم بصلاة الليل ولو ركعة » . رواه الطبراني في الكبير والأوسط .

والأفضل المواظبة على إحدى عشرة ركعة ، أو ثلاث عشرة ركعة ، وهو خير بين أن يصلها وبين أن يقطعها .

قالت عائشة رضى الله عنها : (ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره عن إحدى عشرة ركعة ، يصلى أربعا ، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثا ، فقلت : يا رسول الله أأنام قبل أن توتر ؟ فقال : (يا عائشة إن عيني تامان ولا ينام قلبي)^(١) . رواه البخارى ومسلم .

وروى أيضا عن القاسم بن محمد قال : سمعت عائشة رضى الله عنها تقول كانت صلاة رسول الله ﷺ عشر ركعات ويوتر بسجدة)^(٢) .

٦ - قضاء قيام الليل :

روى مسلم عن عائشة : (أن النبى ﷺ كان إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة)^(٣) .

وروى الجماعة إلا البخارى عن عمر أن النبى ﷺ قال : (من نام عن حزبه أو عن شىء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كأنما قرأه من الليل)^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ عسى أن يعثلك ربك مقاماً محموداً ﴾ : أى يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذى يقومه محمد ﷺ للشفاعة يوم القيامة للشفاعة للناس ليرحمهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

وعن حذيفة قال : يجمع الناس فى صعيد واحد يسمعون الداعى ، وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا ، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادى : يا محمد فيقول : (ليك وسعديك ، والخير فى يديك ،

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ١٦ ، وفى المناقب : ٢٤ . ومسلم فى المسافرين : ١٢٥ . وأبو داود فى الطهارة : ٧٩ ، وفى التطوع :

(٢) ٢٦ . والترمذى فى الفتن : ٦٣ . والنسائى فى الليل : ٣٦ والإمام مالك فى الليل : ٩ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢ ، ٢٧٨ ، وفى

(٣) ٢ : ٢٥١ ، ٤٣٨ ، وفى ٥ : ٤٠ ، ٥٠ ، وفى ٦ : ٣٦ ، ٧٣ ، ١٠٤ .

(٤) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٢٨ . وأبو داود فى التطوع : ٢٦ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٦٥ .

والشر ليس إليك والمهدي من هديت ، وعبدك بين يديك ، ومنك وإليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت) فهذا المقام المحمود الذى ذكره الله تعالى .

قال ابن عباس هذا المقام المحمود مقام الشفاعة .

وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد ، وقاله الحسن البصرى .

وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذى قال الله تعالى : ﴿ عسى أن يعثبك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

قلت : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد ، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر ، وله اللواء الذى آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الخوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتى لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول : لست لها حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول (أنا لها أنا لها) ، كما سنذكر ذلك مفصلاً فى هذا الموضع إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها ، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته وأولهم إجازة على الصراط بأمره ، وهو أول شفيع فى الجنة كما ثبت فى صحيح مسلم .

وفى حديث الصور : (أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته وهو أول داخل إليها وأمرته قبل الأمم كلهم ، ويشفع فى رفع درجات أقوم لا تبلغها أعمالهم وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة لا تليق إلا له ، وإذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيشفع هو فى خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك .

قال البخارى حدثنا اسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن علي سمعت ابن عمر يقول : (إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً) (١)

وعن عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : (إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم بموسى فيقول كذلك ، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً) (٢).

وقال البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٧ : ١١ .

(٢) أخرجه الدارمى فى الرقاق : ٨٠ . والإمام فى ١ : ٣٩٨ ، وفى ٣ : ٤٥٦ .

وعدته . حلت به شفاعتي يوم القيامة (١) انفرد به دون مسلم .

وقال الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن أبيه عن النبي ﷺ قال : (إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر) (٢) . قال الترمذى حسن صحيح .

وقال الامام أحمد عن أنس عن النبي ﷺ قال : (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقتك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول لهم آدم : لست هناك . ويذكر ذنبه الذى أصاب ، فيستحي ربه عز وجل من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا فيقول : لست هناك ، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي ربه من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتونه فيقول : لست هناك ، ولكن ائتوا موسى ، عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة . فيأتون موسى فيقول لست : هناك ، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس فيستحي ربه من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ، فيأتون عيسى فيقول : لست هناك ، ولكن ائتوا محمداً غفر الله له ماتقدم من ذنوبه وما تأخر . فيأتون - قال الحسن هذا الحرى - فأقوم فأمشي بين سباطين من المؤمنين - قال أنس حتى أستأذن على ربي فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي ، فيدعني ماشاء الله أن يدعني - قال - ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه ، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ماشاء الله أن يدعني ، ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة فإذا رأيت ربي وقعت - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ماشاء الله أن يدعني ، ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، وسل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الرابعة ، فأقول يارب : ما بقى إلا من حبسه القرآن (٣) .

وحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : (فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة) (٤) .

(١) أخرجه البخارى في الأذان : ٨ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ١١ . والترمذى فى الصلاة : ٤٣ . والنسائى فى الأذان : ٣٨ . وابن ماجه فى الأذان : ٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الزهد : ٣٧ . والترمذى فى المناقب : ١ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ١ ، وفى التوحيد : ١٩ ، ٢٤ ، وفى الرقاق : ٥١ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢٢ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٧ .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٣ ، وفى المناقب : ٢٨ ، وفى التوحيد : ١٩ . والترمذى فى جهنم : ٩ ، ١٠ . وابن ماجه فى المقدمة : ٩ ، وفى الزهد : ٣٧ . والإمام أحمد فى ١ : ٤١٦ ، ٤٥٨ ، وفى ٣ : ١١٦ ، ١٧٣ ، ٢٤٨ ، ٢٧٦ .

وقال الإمام أحمد عن أنس قال حدثني نبي الله ﷺ قال : (إني لقاكم انتظر أمتي تعبر الصراط ، إذ جاءني عيسى عليه السلام فقال : هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون - أو قال يجتمعون إليك - ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله بغم ما هم فيه ، فالخلق ملجمون بالعرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة ، وأما الكافر فيغشاه الموت ، فقال : انتظر حتى أرجع إليك ، فذهب نبي الله ﷺ فقام تحت العرش ، فلقى مالم يلق ملك مصطفى ، ولا نبي مرسل ، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن أذهب إلى محمد وقل له : أرفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فشفعت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً ، فمازلت أتردد إلى ربي عز وجل فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت ، حتى أعطاني الله عز وجل من ذلك أن قال : أدخل من أمتك من خلق الله عز وجل من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك)^(١).

وقال الإمام أحمد عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال (يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ، ويكسوني ربي عز وجل حلة خضراء ، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود)^(٢).

وقال أيضاً عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : (أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم ، ومن خلفي مثل ذلك ، وعن يميني مثل ذلك ، وعن شمالي مثل ذلك) فقال رجل : يا رسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : قال : (هم غر محجلون من أثر الوضوء ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم)^(٣).

صلى الله عليك يا علم الهدى ماهبت النسائم وما ناحت على الأيك والحمام :

إذا كان يوم العرض والحشر واللقا

فلا أحد في الرسل يشفع إلا هو

فسيجد تحت العرش لله سجدة

ويسأله فصل القضاء فيعطاه

ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول في أمير الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه .

يا من له عز الشفاعة وحده وهو المنزه ماله شفعاء

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٣٠٧ ، ٣٧٣ ، ٥١٨ ، وفي ٣ : ١٧٨ ، وفي ٤ : ٤٤ ، وفي ٥ : ٢٣٦ . والترمذي في الدعوات : ١٢٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٣٠٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ١ : ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، وفي ٢ : ٣٠٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ٥٢٣ ، وفي ٣ : ٤٣١ ، وفي ٤ : ٢٠٧ ، وفي ٥ : ١٩٩ ، ٢٦٢ .

عرش القيامة أنت تحت لوائه والحوض أنت حياله السقاء
لى فى مدحك يا رسول عرائس تُبمن فيك وشاقهن جلاء
هن الحسان فإن قبلت تكرما فمهورهن شفاعة حسناء

(قوله تعالى : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ :

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ وقال الترمذى حسن صحيح .

(وقال الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطرده أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة ، أمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذى قال الله عز وجل : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ﴾ الآية

وقال قتادة : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق ﴾ يعنى المدينة ﴿ وأخرجنى مخرج صدق ﴾ يعنى مكة .

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد أسلم وهذا القول هو أشهر الأقوال .

وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ أدخلنى مدخل صدق ﴾ يعنى الموت ﴿ وأخرجنى مخرج صدق ﴾ يعنى الحياة بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ :

قال قتادة : إن نبى الله ﷺ علم أن لاطاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمه من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم .

وقال مجاهد : ﴿ سلطانا نصيرا ﴾ حجة بينة .

واختار ابن جرير قول قتادة وهو الأرجح ، لأنه لايد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ولهذا يقول

تعالى :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ (١) .

وفي الحديث : (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) أى ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن ، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد .

قوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ :

هذا وعيد وتهديد لكفار قريش .

روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال (دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود من يده فيقول :

﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾

﴿ جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ (١) .

وعن جابر رضى الله عنه قال :

(دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما تعبد من دون الله ، فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها ، وقال :

﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾

إن من الحقائق الثابتة أن صوت الباطل لن يرتفع إلا إذا غفل أهل الحق ولن يستأسد الحمل إلا إذا اسنوق الجمل وسيظل الباطل يعربد في عرصات الأرض حتى يتصدى له الحق بقوته فيدمغه فإذا هو زاهق .

والباطل زهوق بطبعه ، لكن إذا غفل أهل الحق عن حقهم خلا الجو للباطل فباض وأفرخ باض الاحاد وأفرخ الرندقة ، فكيف يسكت أهل الحق عن حقهم بينما أهل الباطل يستمسكون بباطلهم .

فما بال المعروف أصبح منكرا ، وكيف أضحى المنكر معروفا ، وكيف صار الذئب راعيا ، وكيف بات الخصم العنيد قاضيا .

اللهم ارنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وارنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

قوله تعالى :

﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ :

هو كقوله تعالى عن القرآن :

﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون

من مكان بعيد ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْ هَذِهِ إِيْمَانًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إِيْمَانًا وهم يستبشرون * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١).
 قال قتادة : إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ أى لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .
 قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرْكَانَ يَتُوسَا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكَلْتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ .
 هذا اختيار منه تبارك اسمه عن فريق من الناس ، فهو سبحانه إذا أخبر فهو العليم بذات الصدور :
 ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢).

هذا النوع من الناس إذا أنعم الله عليه بنعمة نسي شكر المنعم ، وأعرض عن ذكر ربه ، ونأى بجانبه بعيداً عن طاعة الله ، فإذا ما ابتلاه الله بنقمة نسي من رحمة الله ، وأعرض عن دعاء ربه ، فهذا الفريق والعياذ بالله في شر في كل أحواله ، فهو في السراء معرض ، وفي الضراء يتوس ، ولا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يقنط من رحمة الله إلا الضالون .

فَاللَّهُمَّ أَغْنِنَا بِالْفَقْرِ إِلَيْكَ ، وَلَا تَفْقِرْنَا بِالْإِسْتِغْنَاءِ عَنْكَ ، فَشِعَاعَ مِنْ رِضَاكَ يَطْفِئُ غَضَبَ مُلُوكِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَلِحْمَةً مِنْ غَضَبِكَ تَرْهَقُ الرُّوحَ ، وَلَوْ أَنْغَمَسْتَ فِي نَعِيمِ الدُّنْيَا ، وَقَطَرَةً مِنْ فَيْضِ جُودِكَ تَمْلَأُ الْأَرْضَ رِيًّا ، وَنَظَرَةً بِعَيْنِ رِضَاكَ تَجْعَلُ الْكَافِرَ وَلِيًّا :

مَامَسْنِي قَدْرَ بَكْرِهِ أَوْ رِضَا
 إِلَّا اهْتَدَيْتُ بِهِ إِلَيْكَ طَرِيقًا
 أَمْضَى الْقَضَاءِ عَلَى الرِّضَا مَنَى بِهِ
 إِنِّي عَرَفْتُكَ فِي الْبَلَاءِ رَفِيقًا

قوله تعالى :

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكَلْتِهِ ﴾ :

قال ابن عباس : على ناحيته .

وقال مجاهد : على حدته وطبيعته .

وقال قتادة : على نيته .

وقال ابن زيد : دينه .

وهذه الآية تهديد للمشركين ووعد لهم كقوله تعالى : ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون﴾ وانتظروا إنا منتظرون * والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴿١﴾.

ربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، وسيجزي كلا بعمله ولا يظلم ربك أحدا .

الروح والقرآن ومقترحات المعاندين

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَآ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خَالِجَاتٍ تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبُهِدَ اللَّهُ لَهُ فَهُوَ الْغَالِبُ فَلَنْ يَضِلَّ فَلَنْ يُجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَا أُوتِيتُمْ بِهِمْ كَلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِمَا يَتَنَبَّأُونَ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا ءِذَا نَبْعُوثُ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ

أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٩﴾ قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٢٠﴾

المفردات : في المراد من الروح في هذه الآية ثلاثة آراء :

١ - ﴿القرآن﴾ : وهو المناسب لما تقدمه من قوله : ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة﴾ (١) ولما بعده من قوله : ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ (٢) ولأنه سمي به في مواضع متعددة من القرآن كقوله ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ (٣) وقوله ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ (٤) ولأن به تحصيل حياة الأرواح والعقول إذ به تحصل معرفة الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف .

٢ - ﴿جبريل عليه السلام﴾ : وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمي جبريل في مواضع عدة من القرآن كقوله : ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ (٥) وقوله : ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ (٦) ويؤيد هذا أنه قال في هذه الآية ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ وقال جبريل ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ (٧) فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل في نفسه وكيف يقوم بتبليغ الوحي .

٣ - الروح الذي يحيا به بدن الإنسان - وهذا قول الجمهور - ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعتراضاً للدلالة على خسارة الظالمين وضلالتهم ، وأنهم مشغولون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعتن بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق على معرفته .

ويؤيد هذا ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (مر رسول الله ﷺ بنصر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه يُسمعكم ما تكرهون . فقاموا إليه ، وقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن الروح . فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه ، ثم قال : ﴿ويسألونك عن الروح﴾ . الآية (ذكره المراغى في تفسيره) .

﴿وكيلاً﴾ : أى ملتزماً استرداده بعد الذهاب به كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه .
﴿ظهيراً﴾ : أى معينا في تحقيق ما يتوكلونه من الإتيان بمثله . ﴿وصرفنا﴾ : كررنا ورددنا .
﴿والكفور﴾ : الجحود . ﴿النبوع﴾ : العين التي لا ينضب ماؤها . ﴿جنة﴾ : أى مستان تستبرأ أشجاره ماتحتها من الأرض . ﴿كسفا﴾ : واحدا كسفة كقطع وقطعة لفظاً ومعنى . ﴿وقيلاً﴾ :

(٥) الآية ١٩٣ من سورة الشعراء .

(٦) الآية ١٧ من سورة مريم .

(٧) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

(١) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٨٦ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى .

(٤) الآية ٢ من سورة النحل .

أى مقابلاً كالعشير بمعنى المعاصر والمراد رؤيتهم عياناً . ﴿ والزخرف ﴾ : هنا الذهب . وأصله الزينة وأجملها ما كان بالذهب . ﴿ ترقى ﴾ : أى تصعد . ﴿ مطمئنين ﴾ : أى ساكنين مقيمين فيها . ﴿ وخبث ﴾ : أى سكن لها . ﴿ والسعير ﴾ : اللهب . ﴿ وكفورا ﴾ : أى جحوداً للحق . ﴿ خشية الانفاق ﴾ : أى خوف الفقر . ﴿ والقنور ﴾ : الشديد البخل .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ :

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال : (كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة وهو متوكأ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح : وقال بعضهم : لا تسألوه . قال : فسألوه عن الروح فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فما زال متوكأ على العسيب ، قال : فظننت أنه يوحى إليه . فقال ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قال : فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه (١) .

قال العلامة ابن كثير :

وهذا السياق يقتضى بآدى الرأى أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأل اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية .

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ .

ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد . حدثنا قتيبة . حدثنا يحيى بن زكريا عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال : (قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل . فقالوا : سلوه عن الروح . فسألوه ، فنزلت ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قالوا أوتينا علماً كثيراً ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً ، قال : وأنزل الله ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ : أى من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ : أى وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى .

(١) أخرجه البخارى في الاعتصام : ٨٢٣ ، وفي العلم : ٤٧ ، وفي التفسير سورة ١٧ : ١٣ . ومسلم في المناقب : ٣٢ . والترمذى و

تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد في ١ : ٢٥٥ ، ٣٨٩ ، ٤١٠ ، ٤٤٤ .

(٢) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .

والمعنى أن علمك في علم الله قليل ، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما أستاذت به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى .

جاء في قصة موسى والعبد الصالح : (أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة فنقر في البحر نقرة ، أى شرب منه بمنقاره ، فقال : يا موسى ما علمى وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر)^(١) أو كما قال .

فسبحان من أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾^(٢) .

وسبحان من علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾^(٣) .

فسبحان من خلق الكائنات وقدر أرزاقها وحدد آجالها .

﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾^(٤) .

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾^(٥) .

قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلاً ﴾ إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴿ :

بعد أن أمتن سبحانه على نبيه بما أنزل عليه من الكتاب ، وذكر أنه شفاء للناس ، وأنه ثبت عليه حين كادوا يفتنونه عنه ، ثم أردفه بمسألة الروح اعتراضاً ، لأن اليهود والمشركين اشتغلوا بها عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، وسألوا تعنتاً عن شيء لم يأذن الله بالعلم به لعباده .

(١) أخرجه البخارى في الأنبياء : ٢٧ ، وفي العلم : ٤٤ ، وفي تفسير سورة ١٨ : ٢ ، ٤ . ونسلم في الفضائل : ١٧٠ والترمذى في

تفسير سورة ١٨ : ١ .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٧ من سورة لقمان .

(٤) الآية ٦ من سورة هود .

(٥) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .

امتن عليه ببقاء ذلك الكتاب وحذره من فتنه الضالين ، وإرجاف المرجفين وهو المعصوم من الفتنه فإنه لو شاء لأذهب ما بقلبه منه ، ولكن رحمة بالناس تركه في الصدور .

وفي هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء وهم غير معصومين من الفتنه ، بأن يباعد بينهم وبين هدى الذين بمظاهرتهم للرؤساء والعامة ، وتركهم العمل به اتباعاً لأهوائهم ، واستبقاء لودهم وحفظاً لرعاتهم على الناس .

ثم ذكر أن القرآن وحى يوحى ، فلا يستطيع الجن والإنس ان يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض معينا ، وقد اشتمل على الحكم والأحكام والآداب التى محتاج إليها البشر فى معاشهم ومعادهم ، وكثير من الناس جحدوا فضله عتوا وكبراً .

قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلاً ﴾ :

لما ذكر سبحانه أنه ماأتاهم من العلم إلا قليلاً بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾ :

أى والله لئن شئنا لتمحون القرآن من الصدور والمصاحف ، ولا نترك له أثراً ، وتصيرون كما كنت لاتدرى ما الكتاب ولا الايمان .

﴿ ثم لاتجد لك به علينا وكيلاً ﴾ : أى ثم لاتجد ناصراً ينصرك فيحول بيننا وبين ما نريد بك ، ولا قيماً لك يمنعنا من فعل ذلك بك .

﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ : أى ولكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا إمتنان من الله ببقاء القرآن ، قال الرازى : إنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة أحدهما : تسهيل ذلك العلم عليهم . ثانيهما : إبقاء حفظه .

﴿ إن فضله كان عليك كبيراً ﴾ :

إذ أرسلك للناس مبشراً ونذيراً ، وأنزل عليك الكتاب وأبقاه فى حفظك ، وتصاحفك ، وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم وصيرك سيد ولد آدم ، وختم بك النبیین ، وأعطاك المقام المحمود .

ثم نبه إلى شرف القرآن العظيم وكبير خطره فقال سبحانه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ :

أى قل لهم متحدياً : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على ان يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله بلاغة وحسن معنى وتصرفاً وأحكاماً ونحو ذلك ، لا يأتون بمثله ، ومنهم العرب الفصحاء ، وأرباب البيان ، ولو تعاونوا وتظاهروا ، فإن هذا غير ميسور لهم ، فكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لانظير له ولا مثيل .

ثم ذكروا بعض محاسن هذا القرآن فقال :

﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ :

أى ولقد رددنا القول فيه بوجوه مختلفة ، وكررنا الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي ، وأقاصيص الأولين والجنة والنار ، ليدبروا آياته ويتعضوا بها .

﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفروا ﴾ :

أى فأبى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار والثبات على الكفر ، والإعراض عن الحق .

ولما تم الإقناع بالحجة ، وقطعت ألسنتهم وأفحموا ، ولم يجدوا وسيلة للرد ، أرادوا المراوغة باقتراح الآيات ، وذكروا من ذلك ستة أنواع ذكرها سبحانه بقوله :

قوله تعالى :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً* أو تسقط السماء كسفاً* أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً* وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً* قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً . قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً* ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ماؤاهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً* ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً* أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً* قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً ﴾ :

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ، وألزمهم الحجة وغلبوا على أمرهم ، أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ، ويتعثرون في أذيال الحيرة ، فطلبوا آية من آيات ست ، فإن جاءهم بآية منها آمنوا به وصدقوا برسالته .

روى عن ابن عباس : (أن أشراف مكة أرسلوا إلى النبي ﷺ وهم جلوس عند الكعبة ، فأتاهم فقالوا : يا محمد إن أرض مكة ضيقة ، فسير جبالها لنتنع بأرضها ، وفجر لنا فيها نهراً وعيونا نزرع منها . فقال : لا أقدر عليه . فقال قائل : أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجير . فقال : لا أقدر عليه . فقيل : أو يكون لك بيت من زخرف (ذهب) فيغنيك عنا . فقال : لا أقدر

عليه . فقيل له : أما تستطيع الخير ، فاستطع الشر ، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا بالعذاب . فقال عبد الله بن أمية المخزومي ، وأمه عمة رسول الله ﷺ : لا والذي يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر إليك ، فتأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ، ثم بعد ذلك لا أدرى أنؤمن بك أم لا .

فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقترح الآيات ليس من وظيفة الرسل ، وإنما وظيفتهم البلاغ للناس . ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله بشراً رسولا ، فأجابهم بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن تكون رسلهم من الملائكة ، لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله ﷺ على ما يلاقى من قومه ، بأن الهداية والإيمان بيد الله ، لا قدرة له على شيء من ذلك ، ومن يضل الله فلا هادى له ، وسيلقون جزاءهم نار جهنم بما كسبت أيديهم ، دنسوا به أنفسهم من الكفر والفجور والمعاصي وإنكار البعث والحساب ، وهم يعلمون . أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى .

ثم بين أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا من إجراء الأنهار والعيون ، وتكثير الأموال واتساع المعيشة ، لما كان هناك من فائدة ، ولما أوصلوا النفع إلى أحد فالإنسان بطبعه شحيح كثر بخيل .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ :

أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبى سفيان والنضر بن الحارث ، قول المهتوت المحجوج المتحير : لن نصدقك حتى تستنبط لنا عيناً من أرضنا تدفق بالماء أو تفور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله ، وأجابهم إلى ما يطلبون ، ولكن الله علم أنهم لا يهتدون . كما قال : ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (١)

وقال : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا ﴾ (٢).

٢ - ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ﴾ : أى أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تتفجر الأنهار خلاله تفجيراً .

٣ - ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ :

وخلاصة ذلك - أو تسقط السماء علينا متقطعة قطعاً قطعاً ، ونحو الآية قوله : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ (٣) .

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

(٢) الآية ١١١ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

وكذلك سأل قوم شعيب مثله فقالوا: ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين﴾^(١).

٤ - ﴿أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً﴾ : أى أو تأتى بالله والملائكة ، تقابلهم معاينة ومواجهة .
قاله مجاهد وعطاء ونحو الآية قولهم : ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾^(٢).

٥ - ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ : أى أو يكون لك بيت من ذهب روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرهما .

٦ - ﴿أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه﴾ : أى أو تصعد فى سلم إلى السماء ، ونحن ننظر إليك ولن نصدقك من أجل رقيك وحده .

بل لابد أن تنزل علينا كتابا نقرؤه ، بلغتنا على نهج كلامنا ، وفيه تصديقك ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا﴾ :

أى قل لهم متعجباً من مقترحاتهم ، ومنزها ربك من أن يقترح عليه أحد ، أو يشاركه فى القدرة : ما أنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسول أن يأتوا إلا بما يظهره الله على أيديهم بحسب ما تقتضيه المصلحة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه .

وخلاصة ذلك : سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتكم ، وإن شاء لم يجيبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل .

ثم أعقب ذلك بشبهة أخرى : وهى استبعادهم أن يكون من البشر رسول فقال :

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا﴾ :

أى وما منع مشركى قريش وهم من حكبت أباطيلهم من الإيمان بك حين مجئ الوحي المقرون بالمعجزات التى تستدعى الايمان بنبوتك ، وبما نزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشراً رسولا ، إنكاراً منهم أن يكون الرسول من جنس البشر واعتقاداً منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة ، ونحو الآية قوله : ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾^(٣).

(١) الآية ١٨٧ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٢١ من سورة الفرقان .

(٣) الآية ٢ من سورة يونس .

وقوله : ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا ﴾^(١).

وقال فرعون وملؤه : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾^(٢).

ولذلك قالت الأمم لرسلهم ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾^(٣).

فأجابهم الله عن هذه الشبهة ذاكرة وجه الحق ، منها إلى المصلحة ، بقوله : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ :

أى لو وجد في الأرض ملائكة يمشون كما يمشى البشر ، ويقيمون فيها كما يقيمون ، ويسهل الاجتماع بهم ، وتتلقى الشرائع منهم ، لنزلنا عليهم من السماء رسلا من الملائكة للهداية والإرشاد ، وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلمه ، ولكن طبيعة الملك لا يصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب والتفاهم معهم ، لبعد ما بين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر ، لأن الله قد وهبهم نفوساً زكية ، وأيدهم بأرواح قدسية ، وجعل لهم ناحية ملكية ، بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية بها يبلغون رسالات ربهم إلى عباده .

وقد نبه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة وجليل تلك النعمة بقوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾^(٤).

وقوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾^(٥).

وقوله : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾^(٦).

وإجمال القول في ذلك أنه لو جعل الرسل ملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم ، ولما تمكنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يجعلوا بشرا حتى يستطيعوا أداء الرسالة ، كما قال تعالى جده : ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾^(٧).

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء في صورة دخية الكلبى مراراً عدة ، فقد صح أن أعرايا جاء وليس عليه وعشاء السفر ، فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم ، فقال عليه السلام : (هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم)^(٨).

(٥) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٦) الآية ١٥١ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٩ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٦ من سورة التغابن .

(٢) الآية ٤٧ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية ١٠ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .

(٨) أخرجه البخارى في الإيمان : ٣٧ ، وفي تفسير سورة : ٣١ : ٢ . ومسلم في الإيمان : ١ ، ٥ . والترمذى في الإيمان : ٤ . وأبو داود في السنة : ١٦ . والنسائى في المواقيت : ٦ ، وفي الإيمان : ٥ . وابن ماجه في المقدمة : ٩ . والإمام أحمد في ١ : ١٥ ،

ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر بقوله :

﴿ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ﴾ :

أى قل لهم : إن الله شاهد علىّ وعليكم ، عالم بما جئتمكم به ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى أشد الانتقام ، كما قال سبحانه ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ^(١).

ثم ذكر سبحانه ماهو كالتهديد والوعيد بقوله :

﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾

أى إنه محيط بأحوال عباده الظاهر منها والباطن ، وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيماء إلى أنه ما دعاهم إلى إنكار نبوته ﷺ إلا الحسد وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق ، كما أن فيه تسليية له ﷺ على مايلقاه من الإصرار والعناد والإمعان فى إيذائه .

ثم أخبر سبحانه بأنه لا معقب للحكمة ، ولا سلطان لأحد من خلقه فى شيء ، فقال : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ :

أى ومن يهد الله للإيمان به وتصديقك وتصديق ما جئت به من عند ربك ، فهو المهتدى إلى الحق المصيب سبيل الرشـد ، ومن يضللـه لسوء اختياره وقدسيته نفسه ، وركوبه رأسه فى الغواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصاراً ينصرونهم من دونه يهدونهم إلى الحق ، ويمنعون عنهم العذاب الذى يقتضيه ضلالهم ، ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكماً وصماً ﴾ :

أى ونجمعهم فى موقف الحساب بعد تفرقهم فى القبور عمياً وبكماً وصماً ، كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ومصامون عن استماعه ، فهم فى الآخرة لا يبصرون ما تقر به أعينهم ، ولا يسمعون ما يلذ لمسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ، كما قال : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ ^(٢).

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه انه قال : (قيل : يا رسول الله كيف يمشى الناس على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم) ^(٣).

= ٢٧ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، وفى ٢ : ٤٢٦ وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ .

(١) الآيات ٤٤-٤٦ من سورة الحاقة .

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢٤ : ١ . ومسلم فى المناققين : ٥٤ . والترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد فى

وروى الترمذى : (إن الناس يكونون ثلاثة أصناف في الحشر : مشاة وركبانا وعلى وجوههم)^(١)

وإننا نرى في الدنيا من الحيوان ماهو طائر ، ومنه ماهو ماش ، ومنه ماهو زاحف كالحيات ، وهو أم الأرض .

والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة في الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف ، بحيث يبقى الوجه في الأرض ، وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية ، وهو يهيم على وجهه .

الخلاصة : إنهم يبعثون في أقبح صورة ، وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع ، مع كونهم مسحوبين على وجوههم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهائته وتعذيبه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾^(٢) .

﴿ ماواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ :

أى ثم بعد أن يتم حسابهم يكون منقلبهم ومصيرهم جهنم كلما سكن لهيبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، ولم يبق ماتعلق به وتحرقه زدناها لهبا وتوقدا ، بأن نعيدهم إلى ماكانوا عليه فتستعر وتتوقد . أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما إنه قال : (إن الكفار وقود النار ، فإذا أحرقتهم ولم يبق شيء صارت حجرا تتوهج ، فذلك خبوها ، فإذا بدلوا خلقا جديدا عادوهم) . اهـ .

وكان هذا عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الإفناء بتكرارها مرة بعد أخرى ليروها عيانا ، حيث أنكروها برهاناً . ثم بين علة تعذيبهم لعله يرجع منهم من قضى بسعادته ، فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاقاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ :

أى ذلك العذاب الذى جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم هو جزاؤهم الذى يستحقونه على تكذيبهم بالبينات والحجج التى جاءتهم ، وعلى استبعادهم وقوع البعث ، وقولهم أبعد ماصرنا إلى ماصرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق فى أرجاء الأرض نعاد مرة أخرى ، استنكاراً منهم وتعجباً من أنه يحصل ذلك .

ثم استدل على البعث فقال :

﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ :

أى ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداءً على غير مثال سابق ، وإقامهما

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٤ ، ٣٦٢ .

(٢) الآية ٤٨ من سورة القمر .

بقدرته ، قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق بعد فنائهم ، وكيف لا يقدر على إعادتهم ، والاعادة أهون من الابتداء ؟ .

وبعد أن أثبت أن البعث أمر يمكن الوجود في نفسه أردف ذلك أن لحصوله وقتا معلوما عنده فقال :

﴿ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ﴾ : أى وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلاً مضروباً ، ومدة مقدرة لا بد من انقضائها لا يعلمها إلا هو ، كما قال ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾

خلاصة ذلك :

إنهم قد علموا بالبرهان العقلى أن الله قادر على إعادتهم ، وقد جعل لميقات إعادتهم أجلاً ، وهو يوم القيامة الذى لا شك فيه ، فلا وجه لانكاره .

﴿ فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾ :

أى وبعد إقامة الحجة عليهم أبوا إلا تمادياً في ضلالهم وكفرهم مع وضوح الحجة وظهور المحجة . ثم بين السبب في عدم إجابتهم إلى ما طلبوا من الجنات والعيون ، بأنهم لو ملكوا خزائن الدنيا لبقوا على شحهم فقال :

﴿ قل لو أنكم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق ﴾ :

المراد من الإنفاق هنا الفقر ، كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وروى نحوه عن قتادة ، وإليه ذهب الراغب فقال : أنفق فلان إذا افتقر .

وقال أبو عبيده : أنفق وأملق وأعدم وأحرم ، بمعنى أى قل لهم أيها الرسول لو أنكم تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكنكم خشية الفقر ، أى خشية أن تزول وتذهب مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً .

وقصارى ذلك - أنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها ، لبقيتم على الشح والبخل ، وفي هذا إيماء إلى أن الله لا يهيئكم إلى ما طلبتم من نبيه ﷺ ، من بساتين وعيون تنبع لا بخلا منه ، ولكن اقتضت الحكمة ان يكون نظام الدنيا هكذا ، ولا رقى للإنسان إلا على هذا المنوال ، فهو يوسع الرزق على قوم ويضيقه على آخرين على مقتضى الحكمة والمصلحة ومن ثم لم ينزل على ما اقترحتموه .

﴿ وكان الإنسان قتورا ﴾ :

أى كان الإنسان بخيلاً منوعاً بطبعه ، كما قال : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ (١) .

أى لو أن لهم نصيباً من ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير .

وقد روى البخارى ومسلم : (يد الله ملىء لا يغيضها نفقة سماء) (أخذ) الليل والنهار أرايتم ما أنفق من خلق السموات والأرض فانه لم يغض ما في يمينه) .

وإجمال المعنى : إن الله لم يجب محمدا إلى ما طلبتم لا هوانا لنبيه ولا لأنه ليس بنبي ولا بخلا منه (حاشاه) بل لحكمة منه ، فربما كانت وفرة العطاء إذا نزلت على غير وجهها مصايب على الناس ، فأما أنتم فممنعكم يجرى على طريق البخل ، فلو سلم لكم السموات والأرض وأورثتموها لم تفهموا إلا الإمساك ، ومن ثم لا يسلمكم مفاتيح خزائنه ، لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولا تنفعوا خلقه .

موسى وبنو اسرائيل وفرعون

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَعَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورٌ ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورٌ ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

المفردات : ﴿ مسحورا ﴾ : أى مخبول . ﴿ بصائر ﴾ : حججا وبيانات واحدها بصيرة . ﴿ أى مبصرة ﴾ : بينة . ﴿ مثبورا ﴾ : أى هالكا كما روى عن الحسن ومجاهد . قال الزجاج : يقال ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك ، ويقال فلان يدعو بالويل والثبور حين تصيبه المصيبة ، كما قال تعالى : ﴿ دعوا هنالك ثبورا ﴾ لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا ﴿ ١٠١ ﴾ . ﴿ أن يستفزهم ﴾ : أى أن يخرجهم بالقتل أو أن يزيلهم عنها . ﴿ واللفيف ﴾ : الجمع العظيم من أخلاط شتى ، من شريف ودنى ، ومطيع وعاص ، وقوى وضعيف ، وكل شيء خلطته بغيره فقد لفته .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئا - ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل ما اقترحتهم وأعظم منه ، ولم تجد فرعون وقومه شيئا ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات ، كفاكم الآيات العلمية التى أنزلها

على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فإن لم تؤمنوا بعد ظهور تلك الحجج أهلككم كما أهلك فرعون بالغرق ، وفي ذلك تسلية لرسوله بذكر ماجرى لموسى مع فرعون ، وما جوزى به فرعون وقومه .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن معجزات كليم الله موسى .

وقد ذكر سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

١ - أنه أزال العقدة من لسانه ، أى أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحاً .

٢ - انقلاب العصا حية .

٣ - تلقف الحية حياتهم وعصيمهم على كثرتها .

٤ - اليد البيضاء .

٥-٦-٧-٨-٩ - الطوفان ، الجراد ، القمل ، الضفادع ، الدم .

١٠ - شق البحر .

١١ - انفلاق الحجر في قوله ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر ﴾ (١)

١٢ - إظلال الجبل في قوله ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ (٢)

١٣ - إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه .

١٤-١٥ - الجذب ونقص الثمرات في قوله ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ (٣)

١٦ - الطمس على أموالهم من الخنطة والدقيق والأطعمة .

وقد اختلفوا في المراد من هذه التسع .

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس : أنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات .

وقيل : المراد بالآيات الأحكام ، فقد أخرج أحمد والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجه (أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى النبي فنسأله ، فأتياه ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى :

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٧١ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٣٠ من سورة الأعراف .

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام : لاتشركوا بالله شيئا ، ولا تنزلوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا الحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحرُوا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا بغيري إلى ذي سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت ، فقبلا يده ورجله وقالوا نشهد أنك نبي ، قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : أن داود دعا ألا يزال من ذريته نبي ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود (١).

﴿ فاسأل بني إسرائيل ﴾ ثم خاطب نبيه سبحانه وتعالى فقال : فاسأل بني إسرائيل الذين كانوا في عصرك وآمنوا بك ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، سؤال استشهاد ، لتزيد طمأنيتك ويقينك ، ولتعلم أن ذلك محقق ثابت عندهم في كتابهم .

﴿ إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا ﴾ : أى فاسألهم يخبروك ، لأنه جاءهم أى جاء آبائهم بهذه الآيات وأبلغها فرعون ، فقال له فرعون : إني لأظنك ياموسى مخلص العقل ، ومن ثم ادعيت ما ادعيت ، مما لا يقول مثله كامل العقل ، حضيف الرأي .

﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبورا ﴾ :

أى قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل الله هذه الآيات التسع التي أريتكمها إلا حجة لى على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهده لى على صدق وصحة قولى أنى رسول الله ، بعثنى بها رب السموات والأرض ، لأنه هو الذى يقدر عليها وعلى أمثالها ، وهى بصائر لمن استبصر بها ، وهدى لمن اهتدى بها ، يعرف من رآها من جاء بها فهو محق وأنها من عند الله لا من عند غيره ، إذ كانت معجزة لا يقدر عليها إلا رب السموات الأرض .

﴿ وإني لأظنك يافرعون مشبورا ﴾ : أى وإني لأظنك يافرعون مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر .

﴿ فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقاه ومن معه جميعا ﴾ :

أى فأراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر بقتلهم واستئصالهم بحيث لا يبقى منهم أحداً ، فعكسنا عليه مكره وأغرقناه في البحر ومن معه من جنده جميعا ، فأخرجناه من أرضه أفضع إخراج .

﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ :

أى ونحينا موسى وبني إسرائيل وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون : اسكنوا أرض الشام وهى الأرض المقدسة التى وعدم بها .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لطيفا ﴾ :

أى فإذا جاءت الساعة الآخرة حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

مع القرآن العظيم

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ فِيهِمْ خُشوعًا ﴿١٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَر بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِليٌّ مِنَ الدَّلِّ وَكَثِيرَةٌ تَكْثِيرًا ﴿٢١﴾

المفردات : ﴿ الحق ﴾ : هو الثابت الذى لايزال ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء وإثبات البعث والقيامة . ﴿ وفرقناه ﴾ : أى أنزلناه مفرقاً منجماً . ﴿ والمكث ﴾ : (بالضم والفتح) : التؤدة والتأنى . ﴿ والخرور ﴾ : السقوط بسرعة . ﴿ والأذقان ﴾ : واحدهما ذقن : وهو مجتمع اللحيين . ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ : أى سموه بهذين الاسمين . ﴿ خفت ﴾ : الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت . ﴿ وتخافت القوم ﴾ : القوم تساروا فيما بينهم .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن القرآن معجز دال على صدق الرسول بقوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ :

حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز ، بل طلبوا معجزات أخرى ، وأجابهم ربهم بأنه لا حاجة إلى شيء سواه ، وبأن موسى أتى فرعون وقومه بتسع آيات فجحدها بها فأهلكوا ، فلو أتاكم محمد ﷺ بتلك المعجزات التي اقترحتموها ثم كفرتم بها أنزل عليكم عذاب الاستئصال ، ولم يكن ذلك من الحكمة التي أرادها لعلمه أن منكم من يؤمن ومنكم من لا يؤمن ، ولكن سيظهر من نسله من يكون مؤمنا .

عاد هنا إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدرة وبيان أنه هو الثابت الذى لا يزول ، وأنه أنزله على نبيه مفرقا ليسهل حفظه وتعرف دقائق أسراره ، وأنكم سيان آمنتم به أو لم تؤمنوا ، فإن من قبلكم من أهل الكتاب إذا تلى عليهم خروا سجدا وبكيا ، ثم أردف ذلك ببيان أنكم إن ناديتم الله أو ناديتم الرحمن فالأمران سواء ثم قفى على ذلك بطلب التوسط فى القراءة فى الصلاة بين الجهر والخفوت ، ثم أمر نبيه أن يقول حين الدعاء : ﴿ الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدل وكبره تكبرا ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس : (قال صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم ، فدعا الله تعالى فى دعائه : يا الله يا رحمن فقال المشركون انظروا إلى هذا الصابى ، ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزل : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما مائدعوا فله الاسماء الحسنى ﴾ .

وعن الفحال أنه قال : (قال أهل الكتاب لرسول الله ﷺ إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت) .

﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ : أى أنزلنا عليك القرآن متضمنا للحق ، ففيه أمر بالعدل والإنصاف ، ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الظلم والأفعال الذميمة ، وذكر براهين الوحانية وحاجة الناس إلى الرسل ، لتبشيرهم وإنذارهم وحثهم على صالح الأعمال انتظارا ليوم الحساب والجزاء .

﴿ وبالحق نزل ﴾ : أى ونزل إليك محفوظا محروسا لم يثب بغيره . فلم يزد فيه ولم ينقص ، وقد يكون المراد ونزل إليك مع الحق وهو شديد القوى الأمين المطاع فى الملاء الأعلى جبريل عليه السلام .

وبعد أن مدح الكتاب مدح من أنزل عليه فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾ : أى وما أرسلناك أيها الرسول إلى من أرسلناك إليهم من عبادنا إلا مبشرا بالجنة من أطاعنا فأنتهى إلى أمرنا ، ومنذرا لمن عصانا فخالف ذلك .

﴿ وقرآنا فرقاه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ :

أى وآتيناك قرآنا فرقاه ، أى نزلناه مفرقا منجما ، وقد بدىء بإنزاله ليلة القدر فى رمضان ، ثم أنزل نجوما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع .

وسر نزوله هكذا بعضه إثر بعض ، أن تقرأه على الناس بتؤدة وتأن ليسهل عليهم حفظه ، ويكون ذلك أعون على تفهم معناه .

أخرج البيهقي في الشعب عن عمر رضى الله عنه أنه قال : (تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات . فإن جبريل عليه السلام كان ينزل به خمساً خمساً) .

وكذلك أخرج ابن عساكر عن أوى سعيد الخدرى .

والمراد أن الغالب كذلك ، فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه .

وفائدة قوله : ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ بعد قوله ﴿ فرقناه ﴾ بيان أن ذلك التنزيل لمقتضى ، وهو التنزيل بحسب الحوادث .

ثم هددهم سبحانه على لسان نبيه ﷺ بقوله : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ :

أى قل لهؤلاء الضالين القائلين لك : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، آمنوا بهذا القرآن الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل لم يأتوا ، ولو كان بعضهم ظهيرا ، أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله ، ولا ترككم للإيمان به ينقص ذلك .

ثم علل عدم المبالاة بهم ، واحتقار شأنهم ، بقوله : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ﴾ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ :

أى وإن تكفروا به فإن العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، وعرفوا أن الله سيبعث نبيا - يخرون لله سجداً شكراً له على إنجاز وعده بإرسالك ، حين يتلى عليهم هذا القرآن ، ويقولون فى سجودهم ، تنزه ربنا عن خلف الوعد ، إنه كان وعده آتيا لا محالة .

والخلاصة - إنكم إن لم تؤمنوا به فقد أمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، وفيه تسلية لرسول ﷺ ، وازدراء لشأنهم .

﴿ ويخرون للأذقان يكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ :

أى ويخرون للأذقان باكين من خشية الله إذا يتلى عليهم ، ويزيدهم مافية من العبر والمواعظ خشوعاً وخضوعاً لأمر ، وطاعته . .

وقد جاء فى مدح البكاء من خشية الله أخبار كثيرة .

فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (عينان لآتمسهما النار ، عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى) (١) .

وأخرج مسلم والنسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع . ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم)^(١).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عبد الأعلى التميمي أنه قال : إن من أوتي من العلم ما لم يبيكه لخليق أن قد أوتي من العلم ما لا ينفعه ، لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال ﴿ ويخرون للأذقان يكون ﴾ .

قال الفقهاء في سجود التلاوة

من قرأ آية سجدة ، أو سمعها ، يستحب له أن يكبر ويسجد سجدة ثم يكبر للرفع من السجود ، وهذا يسمى سجود التلاوة ، ولا تشهد فيه ولا تسليم .

فعن نافع عن ابن عمر قال : (كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا القرآن فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا)^(٢) رواه أبو داود والبيهقي والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

وقال أبو داود : يعجبه لأنه كبر .

وقال عبد الله بن مسعود : (إذا قرأت سجدة فكبر واسجد ، وإذا رفعت رأسك فكبر) .

١ - فضله :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول : ياويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار)^(٣) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه .

٢ - حكمه :

ذهب جمهور العلماء إلى أن سجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع . لما رواه البخاري عن عمر أنه (قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النمل حتى جاء السجدة فنزل وسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال : يا أيها الناس إنا لم نؤمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه) . وفي لفظ : (إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء)^(٤)

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد : ٨ ، وفي الزهد : ٨ . والإمام أحمد في ٢ : ٥٠٥ .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة : ١٧٥ .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان : ١٣٣ . وابن ماجه في الإقامة : ٧٠ . والإمام أحمد في ٢ : ٤٤٣ .

(٤) أخرجه البخاري في السجود : ١٠ .

وروى الجماعة إلا ابن ماجه عن زيد بن ثابت قال : (قرأت على النبي ﷺ ﴿ والنجم ﴾ فلم يسجد فيها)^(١) رواه الدارقطني وقال : (فلم يسجد منا أحد) .

ويرجح الحافظ في الفتح أن الترك كان لبيان الجواز ، وبه جزم الشافعي . ويؤيده ما رواه البزار والدارقطني عن أبي هريرة أنه قال : أن النبي ﷺ سجد في سورة ﴿ النجم ﴾ وسجدنا معه قال الحافظ في الفتح ورجاله ثقات .

وعن ابن مسعود (أن النبي ﷺ قرأ ﴿ والنجم ﴾ فسجد فيها وسجد من كان معه ، غير أن شيخاً من قريش أخذ كفا من حصي أو تراب فرفعه إلى جبهته ، وقال يكفيني هذا . قال عبد الله : فلقد رأيته بعد قتل كافراً)^(٢) رواه البخاري ومسلم .

٣ - مواضع السجود :

مواضع السجود في القرآن خمسة عشر موضعاً ، فعن عمرو بن العاص (أن رسول الله ﷺ أقرأه خمسة عشر سجدة في القرآن ، منها ثلاث في الفصل وفي الحج سجدة)^(٣) . رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم والدارقطني وحسنه المنذرى والنووى ، وهى :

- ١ - ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ (٢٠٦ - الأعراف) .
- ٢ - ﴿ والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ (١٥ - الرعد) .
- ٣ - ﴿ والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ (٢٩ - النحل) .
- ٤ - ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا تتلى عليهم يَخرون للأذقان سجداً ﴾ (١٧ - الاسراء) .
- ٥ - ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ (٥٨ - مريم) .

(١) أخرجه البخارى فى السجود : ٦ . ومسلم فى المساجد : ١٠٦ . والترمذى فى الجمعة : ٥٢ . والنسائى فى الافتتاح : ٥٠ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٤ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٨٣ ، ١٨٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى السجود : ١ ، ٤ ، ٥ ، وفى مناقب الأنصار : ٢٩ ، وفى تفسير سورة ٥٣ : ٤ . والترمذى فى الجمعة : ٥١ . والنسائى فى الافتتاح : ٤٩ ، ٥١ . والإمام مالك فى القرآن : ١٥ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٨ ، ٤٠١ ، ٤٣٧ ، وفى ٢ : ٤٠٣ ، ٤٤٣ ، وفى ٣ : ٤٢٠ ، وفى ٤ : ٢٠٥ ، ٢١٦ ، وفى ٥ : ٣٣٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ٧١ .

- ٦ - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدَ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَنْهِنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١٨ - الحج) .
- ٧ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٧٧ - الحج) .
- ٨ - ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ (٦٠ - الفرقان) .
- ٩ - ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴾ (٢٥ - التمل) .
- ١٠ - ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١٥ - السجدة) .
- ١١ - ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ ۖ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ (٢٤ - ص) .
- ١٢ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣٧ - فصلت) .
- ١٣ - ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (٦٢ - النجم) .
- ١٤ - ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ (٢١ - الانشقاق) .
- ١٥ - ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (١٩ - العلق) .
- ٤ - ما يشترط له :

اشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ما اشترطوه للصلاة ، من طهارة واستقبال قبلة وستر عورة .

وقال الشوكاني ليس في أحاديث سجود التلاوة ما يدل على اعتبار أن يكون الساجد متوضئاً ، وقد كان يسجد معه ﷺ من حضر تلاوته ولم ينقل أنه أمر أحدا منهم بالوضوء ، ويبعد أن يكونوا جميعاً متوضئين ، وأيضاً قد كان يسجد معه المشركون ، وهم أنجاس لا يصح وضوؤهم وقد روى البخاري عن ابن عمر (أنه كان يسجد على غير وضوء)^(١) .

وكذلك روى عنه ابن أبي شيبة

(١) . أخرجه البخاري في السجود : ٥ .

وأما ما رواه البيهقي عنه بإسناد - قال في الفتح : إنه صحيح - أنه قال : (لا يسجد الرجل إلا وهو طاهر) فيجمع بينهما بما قاله الحافظ من حمله على الطهارة الكبرى أو على الاختيار ، والأول على الضرورة .

وهكذا ليس في الأحاديث ما يدل على اعتبار طهارة الثياب والمكان ، وأما ستر العورة والاستقبال مع الامكان فقليل : إنه معتبر اتفاقا : قال في الفتح : لم يوافق ابن عمر أحد على جواز السجود بلا وضوء إلا الشعبي . أخرجه ابن أبي شيبة عنه بسند صحيح

وأخرج أيضا عن أبي عبد الرحمن السلمي (أنه كان يقرأ السجدة ثم يسجد وهو على غير وضوء إلى غير القبلة وهو يمشي يومئذ إيماء ومن الموافقين) لابن عمر من أهل البيت أبو طالب والمنصور بالله .

٥ - الدعاء فيه :

من سجد سجود التلاوة دعا بما شاء ، ولم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك إلا حديث عائشة قالت : (كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن : سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين)^(١) رواه الخمسة إلا ابن ماجه . ورواه الحاكم وصححه الترمذي وابن السكن ، وقال في آخره (ثلاثا) على أنه ينبغي أن يقول في سجوده : سبحان ربي الأعلى ، إذا سجد سجود التلاوة في الصلاة .

٦ - السجود في الصلاة :

يجوز للإمام والمنفرد أن يقرأ أية السجدة في الصلاة الجهرية والسرية ويسجد متى قرأها . روى البخاري ومسلم عن أبي رافع قال : (صليت مع أبي هريرة صلاة العتمة - أو قال صلاة العشاء - فقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها فقلت : يا أبا هريرة ما هذه السجدة ؟ فقال : سجدت فيها خلف أبي القاسم ﷺ ، فلا أزال أسجدها حتى ألقاه)^(٢) . وروى الحاكم وصححه على شرط الشيخين عن ابن عمر : (أن النبي ﷺ سجد في الركعة الأولى من صلاة الظهر فرأى أصحابه أنه قرأ ﴿ ألم تنزل ﴾ السجدة . قال النووي : لا يكره قراءة السجدة عندنا للإمام كما لا يكره للمنفرد ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد متى قرأها . وقال مالك : يكره مطلقا .

(١) أخرجه مسلم في المسافرين : ٢٠١ . وأبو داود في السجود : ٧ . والترمذي في الجمعة : ٥٥ ، وفي الدعوات : ٣٢ ، ٣٣ .

والنسائي في التطبيق : ٧٠ ، ٦٧ ، ٦٩ . وابن ماجه في الإقامة : ٧٠ . والإمام أحمد في ١ : ٩٥ ، ١٠٣ ، وفي ٦ : ٣٠ ، ٢١٧ .

(٢) أخرجه البخاري في السجود : ١٠ . ومسلم في المساجد : ١٠٣ ، ١١١ .

وقال أبو خنيفة : يكره في السرية دون الجهرية .

قال صاحب البحر : وعلى مذهبنا يستحب تأخير السجود حتى يسلم لئلا يهوش على المأمومين .

٧ - تداخل السجادات :

تتداخل السجادات ويسجد سجدة واحدة إذا قرأ القارئ آية السجدة وكررها ، أو سمعها أكثر من مرة في المسجد الواحد ، بشرط أن يؤخر السجود عن التلاوة الأخيرة ، فإن سجد عقب التلاوة الأولى فقليل : تكفيه ، وقليل : يسجد مرة أخرى لتجدد السبب .

٨ - قضاؤه :

يرى الجمهور أنه يستحب السجود عقب قراءة آية السجدة أو سماعها ، فإن آخر السجود لم يسقط مالم يطل الفضل فإن طال فإنه يفوت ولا يقضى .

قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

أى قل أيها الرسول لمشركي قومك الذين أنكروا اسم الرحمن : سمو الله أيها القوم ، أو سمو الرحمن ، فبأي أسمائه جل جلاله تسمونه فهو حسن ، لأن كل أسمائه حسنى ، إذ فيها التعظيم والتقديس لأعظم موجود ، وهو خالق السموات والأرض وهذان الاسمان منهما .

روى مكحول : (أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم ، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله الآية) .

ثم أمر رسوله ﷺ بالتوسط في القراءة ، فلا يجهر بصوته ولا يخافت به قال سبحانه : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ :

أى ولا تجهر بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، بل ابتغ طريقاً بين الجهر والخافتة .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال (نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ مُحْتَفٍ بِمَكَّةَ (يصلى خفية) فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به)^(١) .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفت في قراءته ويقول : (أناجى ربي وقد علم حاجتى) وعمر كان يجهر بها ويقول : (أطرط الشيطان ، وأوقظ الوسنان) فلما نزلت الآية أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع صوته قليلاً ، وعمر أن يخفض قليلاً .

(١) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٧ : ١٦ ، ١٧ .

ولما أمر سبحانه رسوله ألا يناديه إلا باسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد بقوله : ﴿وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدل﴾ :

أى وقل لله ذى الجلال والكمال لك الحمد والشكر على ما أنعمت على عبادك من واسع النعم .
وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

١ - إنه لم يتخذ ولدا ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائه تنزه ربنا عن ذلك - ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام فى كل الحالات ، فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وهى هنا رد على اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

٢ - إنه ليس له شريك فى الملك ، إذ لو كان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، ولكان عاجزا إذا حاجة إلى معونة ، ولم يكن له ولى من الدل أى لم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بمولاته .

والخلاصة : إنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يقف أعماله فى الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذل له ، وإذا تنزه ربنا عن ذلك فقد أمن الناس نضوب موارده وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد ، فلتعترف أيها العبد من مناهله ، ولتعلم أنه لا يحاييك لأجل أهلك ولانسلك ولادينك ، ولو كنت ابن نبي من الأنبياء أو عظيم من العظماء .

﴿وكبره تكبيرا﴾ :

أى وعظم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول أو فعل ، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه .

وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون :

- ١ - بتكبيره فى ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود .
- ٢ - بتكبيره فى صفاته باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال منزّه عن صفات النقص .
- ٣ - بتكبيره فى أفعاله ، فتعتقد أنه لا يجرى شئ فى ملكه إلا وفق حكمته وإراداته .
- ٤ - بتكبيره فى أحكامه ، بأن تعتقد أنه ملك مطاع ، له الأمر والنهى ، والرفع والخفض وأنه لا اعتراض لأحد عليه فى شئ من أحكامه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء .
- ٥ - تكبيره فى أسمائه ، فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة .

روى أحمد في مسنده عن معاذ الجهني (أن رسول الله ﷺ كان يقول : آية العز ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيرا ﴾ (١).

وعن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء) (٢).

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم بن أبي أمية قال : (كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح : ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيرا ﴾ سبع مرات .

مجمال ماحوته السورة من الأغراض

- ١ - الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .
- ٢ - تاريخ بني اسرائيل في حالى الارتقاء والانحطاط .
- ٣ - حكم وعظائم للأمة الإسلامية يجب أن تراعيها حتى لاتذهب دولها كما ذهبت دولة بني اسرائيل .
- ٤ - بيان أن كل مافى السموات والأرض مسبح لله .
- ٥ - الكلام في البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .
- ٦ - الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .
- ٧ - الحكمة في عدم إنزال الآيات التي اقترحوها على محمد ﷺ .
- ٨ - قصة سجود الملائكة لأدم وامتناع إبليس من ذلك .
- ٩ - تعداد بعض نعم الله على عباده .
- ١٠ - طلب المشركين من الرسول ﷺ أن يوافقهم في بعض معتقداتهم والخافهم في ذلك .
- ١١ - أمر النبي ﷺ بإقامة الصلاة بالتهجد في الليل .
- ١٢ - بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله .
- ١٣ - قصة موسى مع فرعون .
- ١٤ - الحكمة في إنزال القرآن منجماً .
- ١٥ - تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ٤٣٩ .

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة : ١٢ .

سورة الكهف

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها مائة وعشر عند الكوفيين ، وكلماتها ألف وخمسمائة وتسع وسبعون وحروفها ستة آلاف وثلاثمائة وست .
وسميت سورة الكهف لاشتغالها على قصة أصحاب الكهف بتفصيلها .

مقصود السورة مجملا

- ١ - بيان نزول القرآن على سنن السداد .
- ٢ - تسلية النبي ﷺ في تأخر الكفار عن الإيمان .
- ٣ - بيان عجائب حديث الكهف .
- ٤ - أمر النبي ﷺ بالصبر على الفقراء .
- ٥ - تهديد الكفار بالعذاب والبلاء ووعد المؤمنين بحسن الثواب .
- ٦ - تمثيل حال المؤمن والكافر بحال الأخوين الاسرائيليين .
- ٧ - تمثيل الدنيا بماء السماء ونبات الأرض .
- ٨ - بيان أن الباقي من الدنيا مافيه طاعة الله فقط .
- ٩ - ذكر أحوال القيامة وقراءة الكتب وعرض الخلق على الحق .
- ١٠ - إباء إبليس من السجود .
- ١١ - ذل الكافرين ساعة دخولهم النار .
- ١٢ - جدال أهل الباطل مع المحقين الأبرار .
- ١٣ - التخويف بإهلاك الأمم الماضية وإذلالهم .
- ١٤ - حديث موسى ويوشع وخضر وعجائب أحوالهم .
- ١٥ - قصة ذى القرنين وإتيانه إلى المشرقين والمغربين .

١٦- بنيانه لسد يأجوج ومأجوج وما يتفق لهم آخر الزمان من الخروج وذكر رحمة أهل القيامة .

١٧- ضياع عمل الكفر .

١٨- ثمرات مساعي المؤمنين الأبرار .

١٩- بيان أن كلمات القرآن بحور علم : لانهاية لها ولاغاية لأمدھا .

٢٠- الأمر بالاخلاص في العمل الصالح أبدا .

في قوله : ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ﴾ بغير واو
﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ بزيادة واو .

وفي هذه الواو أقوال :

أحدهما : أن الأول والثاني وصفان لما قبلهما ، أى هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وكذلك الثاني أى هم خمسة سادسهم كلبهم ، والثالث عطف على ما قبله ، أى هم سبعة ثم عطف عليهم ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾
وقيل : كل واحد من الثلاثة جملة وقعت بعدها جملة فيها عائد يعود منها إليها .

فأنت في إلحاق واو العطف وحذفها بالخيار .

وليس في هذين القولين ما يوجب تخصيص الثالث بالواو .

وقال بعض النحويين : السبعة نهاية العدد ، ولهذا كثير ذكرها في القرآن والأخبار ، والثانية تجرى مجرى استئناف كلام ، واستدلوا بقوله سبحانه : ﴿ التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾^(١) .

وبقوله تعالى :

﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾^(٢) .

وبقوله تعالى :

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾^(٣) .

إذ إن أبواب الجنة ثمانية .

(١) الآية ١١٢ من سورة التوبة . (٢) الآية ٥ من سورة التحريم . (٣) الآية ٧٣ من سورة الزمر .

وقيل : إن الله تعالى حكى القولين الأولين ولم يرتضهما ، وحكى القول الثالث فارتضاه . وهو قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً ﴾ ثم استأنف فقال : ﴿ وَثَامَنَهُمْ كُلَّهُمْ ﴾

ولهذا قال عقيب الأول والثاني ﴿ رَجُماً بِالْغَيْبِ ﴾ ولم يقل في الثالث .

فإن قيل : وقد قال في الثالث ﴿ قُلْ رُبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾ فالجواب تقديره : قل ربِّي أعلم بعدتهم ، وقد أخبركم أنهم سبعة وثامنهم كلهم بدليل قوله تعالى : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

ولهذا قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل فعد أسماءهم .

وقال بعضهم : الواو في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً ﴾ يعود إلى الله تعالى ، فذكر بلفظ الجمع كقوله إنا وأمثاله ، هذا على سبيل الاختصار .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ رُدَّدَتْ إِلَى رَبِّي ﴾ وفي حم : ﴿ وَلَنْ رَجَعْتَ إِلَى رَبِّي ﴾ ^(١) لأن الرد عن شيء يتضمن كراهة المردود ، ولما كان مافى الكهف تقديره : ولن رددت عن جنتي التي أظن أنها لا تبديد أبدا إلى ربِّي ، كان لفظ الرد الذى يتضمن الكراهة أولى ، وليس فى حم ما يدل على كراهة ، فذكر بلفظ الرجوع ليأتى لكل مكان ما يليق به .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ وفى السجدة ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ ^(٢) :

لأن الفاء للتعقيب ، وثم للتراخى ، وما فى هذه السورة فى الاحياء من الكفار ، أى ذكروا فأعرضوا عقيب ما ذكروا ، ونسوا ذنوبهم ، و [هم] بعد متوقع منهم أن يؤمنوا . ومافى السجدة فى الأموات من الكفار بدليل قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ^(٣)

أى ذكروا مرة بعد أخرى ، وزمانا بعد زمان ، ﴿ بآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ثم أعرضوا عنها بالموت ، فلم يؤمنوا ، وانقطع رجاء إيمانهم .

قوله تعالى :

﴿ نَسِيا حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ ﴾ : والآية الثالثة : ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ﴾ لأن الفاء للتعقيب والعطف ، فكان اتخاذا الحوت السبيل عقيب النسيان فذكر بالفاء [و] فى الآية الأخرى لما حيل بينهما بقوله : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ زال معنى التعقيب وبقي العطف المجرد وحرفه الواو .

قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا ﴾ وبعد ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نَكْرًا ﴾ لأن الأمر : العجب ، والعجب

(١) الآية ٥٠ من سورة فصلت . (٢) الآية ٢٢ من سورة السجدة . (٣) الآية ١٢ من سورة السجدة .

يستعمل في الخير والشر بخلاف النكر ، لأن النكر ما ينكره العقل فهو شر ، وخرق السفينة لم يكن معه غرق ، فكان أسهل من قتل الغلام وإهلاكه فصار لكل واحد معنى يخصه .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ ﴾ وبعده ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ ﴾ لأن الانكار في الثانية أكثر وقيل : أكد التقرير الثاني بقوله (لك) كما يقول لمن توبخه : لك أقول ، وإياك أعنى ، وقيل بين في الثاني المقول له ، لما لم يبين في الأول .

قوله تعالى في الأول ﴿ فَأَرَدْتُ ﴾ ، وفي الثاني ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ وفي الثالث ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ . لأن الأول في الظاهر إفساد ، فأسنده إلى نفسه ، والثالث إنعام محض فأسنده إلى الله عز وجل ، وقيل : لأن القتل كان منه أما إرهاب الروح فكان من الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ ﴾ جاء في الأول على الأصل وفي الثاني : ﴿ تَسْتَطِعْ ﴾ على التخفيف ، لأنه الفرع .
قوله تعالى :

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ :

اختار التخفيف في الأول لأن مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول فاختر فيه الحذف ، والثاني مفعوله اسم واحد وهو قوله (نقبا) وقرأ حمزة بالتشديد وأدغم التاء في الطاء .

فضل السورة

صح في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من حفظ عشر آيات من أول الكهف عصم من الدجال)^(١).

مناسبتها لما قبلها

١ - إن سورة الإسراء افتتحت بالتسبيح ، وهذه بالتحميد ، وهما مقترتان في سائر الكلام في نحو « فسيح بحمد ربك » ونحو سبحان الله وبحمده .

٢ - تشابه ختام السالفة وافتتاح هذه ، فإن كل منهما حمد .

٣ - إنه ذكر في السابقة قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ والخطاب فيها لليهود ، وذكر هنا قصة موسى نبي إسرائيل مع الخضر عليهما السلام وهي تدل على كثرة معلومات الله التي لا تحصى ، فكانت كالدليل على ما تقدم .

(١) أخرجه مسلم في المسافرين : ٢٥٧ . وأبو داود في الملاحم : ١٤ . والترمذي في ثواب القرآن : ٦ . والإمام أحمد في ٥ : ١٣ ، ١٩٦ ، وفي ٦ : ٤٤٦ ، ٤٤٩ .

٤ - إنه جاء في السورة السابقة : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ ثم فصل ذلك هنا بقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ربي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ ربي حَقًّا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ① فَيَمَّا يَلِيْذِرَ بِأَسَافِدِيْدًا
مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ② مَّا كُنْتُمْ فِيهِ
أَبَدًا ۖ ③ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ④ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً
تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ⑤ فَلَعَلَّكَ بِخَعِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ
يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ ⑥ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا ۖ ⑦ وَإِنَّا لَنَجْعَلُنَّ مَا عَلَيْهِمَا صَعِيدًا جُرْزًا ۖ ⑧

المفردات : ﴿ العوج ﴾ : (بالكسر والفتح) : الانحراف والميل عن الاستقامة ،
فلا خلل في لفظه ولا في معناه . ﴿ قيما ﴾ : أى معتدلا لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف
حتى يشق على العباد ، ولا تنريط فيه بإهمال ماتمس الحاجة إليه ﴿ والبأس ﴾ : العذاب الشديد في
الآخرة . ﴿ من لدنه ﴾ : أى من عنده . ﴿ كبرت ﴾ : (بضم الباء) ﴿ كلمة ﴾ : أى
ما أعظمها مقالة قلت ، وهذا أسلوب في الكلام يدل على التعجب والاستغراب مما حدث من قول
أو فعل . ﴿ باخع ﴾ : أى قاتل ، قالها بن عباس . ﴿ على آثارهم ﴾ : أى من بعدهم أى من بعد
توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه . ﴿ والحديث ﴾ : هو القرآن . ﴿ والأسف ﴾ : المبالغة في
الحزن والغضب . ﴿ وصعيدا ﴾ : أى ترابا . ﴿ وجرزا ﴾ : أى لانبات فيه .
هذه صورة جليلة قدرها عظيم عند الله .

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبى إسحاق قال سمعت البراء يقول : (قرأ رجل الكهف
وفي الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال :
اقرأ فلان فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزل للقرآن) (١) أخرجاه في الصحيحين من حديث
شعبة به وهذا الرجل الذى كان يتلوها هو أسيد بن الحضير .

(١) أخرجه البخارى في المناقب : ٢٥ ، وفي فضائل القرآن : ١١ . ومسلم في المسافرين : ٢٤٠ ، ٢٤١ . والترمذى في ثواب القرآن :
٦ . والإمام أحمد في ٤ : ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ .

وروى الإمام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه إلى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا ما بين السماء والأرض) (١).

وروى الحافظ أبو بكر بسنده عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ (من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين) .

وروى الإمام سعيد بن منصور بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق) .

وفي المختارة للحافظ الضياء المقدس بسنده عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي مرقوعا : (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه) .

سبب نزولها :

ذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال : حدثني شيخ من أهل مصر ، قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : (بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .. فخرجنا حتى أتينا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله وقالوا : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول ، فترون فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا يامعشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور وأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يامحمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ « أخبركم غدا عما سألتكم عنه » ولم يستثن

فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ فيما :

اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحقيق بالحمد والثناء الجميل ، نحمدك على هذه النعمة الجليلة بإنزال الكتاب الكريم على نبيك الكريم ، وعبدك الصادق الأمين ، محمد ﷺ ، ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿^(١)

لقد أنزلت عليه كتاباً يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وقلت : فى شأن هذا الكتاب ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾^(٢)

وقلت : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾^(٣)

وقلت : ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾^(٤)

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾^(٥)

وقلت : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾^(٦)

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾^(٧)

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس

لا يؤمنون ﴾^(٨)

وقلت : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز

الحميد ﴾^(٩)

- | | | | |
|-----|--------------------------------|-----|---------------------------|
| (١) | الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت . | (٦) | الآية ١ من سورة هود . |
| (٢) | الآية ٢ من سورة البقرة . | (٧) | الآية ١ من سورة يوسف . |
| (٣) | الآية ٣ من سورة آل عمران . | (٨) | الآية ١ من سورة الرعد . |
| (٤) | الآية ٢ من سورة الاعراف . | (٩) | الآية ١ من سورة إبراهيم . |
| (٥) | الآية ١ من سورة يونس . | | |

- وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ ^(١) .
- وقلت : ﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين * هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ ^(٢) .
- وقلت : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ ^(٣) .
- وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين ﴾ ^(٤) .
- وقلت : ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ ^(٥) .
- وأقسمت به وقلت : ﴿ يس * والقرآن الحكيم ﴾ ^(٦) .
- وقلت : ﴿ ص * والقرآن ذى الذكر ﴾ ^(٧) .
- وقلت : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ ^(٨) .
- وقلت : ﴿ حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ ^(٩) .
- وقلت : ﴿ حم * تنزيل الكتاب من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ ^(١٠) .
- وقلت : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ ^(١١) .
- وقلت : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ ^(١٢) .
- وقلت : ﴿ الرحمن * علّم القرآن • خلق الإنسان * علمه البيان ﴾ ^(١٣) .
- وقلت : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ ^(١٤) .
- وقلت : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴾ ^(١٥) .
- وقلت : ﴿ وقولك الحق : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ ^(١٦) .
- وقلت لرسولك : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون ﴾ ^(١٧) .
- أنزلته كتاباً مستقيماً لا عوج فيه ولا زيغ ولا انحراف ، انتظم أصول العقائد ، وشعائر العبادات ،

- | | | |
|------------------------------------|------------------------------------|--------------------------------------|
| (١) الآية ١ من سورة الحجر . | (٧) الآيات ١ ، ٢ ، من سورة ص . | (١٣) الآيات ١-٤ من سورة الرحمن . |
| (٢) الآيات ١ ، ٢ ، من سورة النمل . | (٨) الآية ١ من سورة الزمر . | (١٤) الآيات ٣ ، ٤ ، من سورة الزخرف . |
| (٣) الآية ١ من سورة الفرقان . | (٩) الآيات ١ ، ٢ ، من سورة غافر . | (١٥) الآية ٣ من سورة الدخان . |
| (٤) الآية ٢ ، ٣ ، من سورة لقمان . | (١٠) الآيات ١-٤ من سورة فصلت . | (١٦) الآية الأولى من سورة القدر . |
| (٥) الآية ٢ من سورة السجدة . | (١١) الآية ٣ من سورة الشورى . | (١٧) الآية ٤٤ من سورة الزخرف . |
| (٦) الآيات ١ ، ٢ ، من سورة يس . | (١٢) الآيات ١ ، ٢ ، من سورة محمد . | |

وشرائع المعاملات ، ومناهج السلوك ، وقواعد النظام ، ومبادئ الأخلاق ، أنزلته قيما فأحييت به أجيالاً من العدم ، وفتحت به قلوباً غلفاً ، وأعيناً عمياً ، وآذاناً صماً .

الله أكبر ان دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قبيلاً
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلاً

قوله تعالى : ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ :

هذا وعيد وتهديد بالعذاب الشديد من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، لكل من أدبر واستكبر وتولى وأعرض .

قوله تعالى : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴾ ماكتين فيه أبداً :

هذا وعد من رب العزة للمؤمنين الصادقين الذين قدموا الأعمال الصالحة ، يبشرهم ربهم أن لهم أجراً حسناً ، وهذا الأجر هو الجنة ، ونعيمها ومساكنها الطيبة ، والتي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وأنهم ماكتون دائمون في هذا النعيم ، كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ ادخلوها بسلام آمين * ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين * لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ^(١)

قوله تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ :

هؤلاء هم مشركو العرب ، فإنهم جعلوا الملائكة المكرمين بنات الله قال سبحانه :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إذاً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ^(٢) .
وقال سبحانه :

﴿ فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ^(٣) .

(١) الآيات ٤٥-٤٨ من سورة الحجر .

(٢) الآيات ٨٨-٩٥ من سورة مريم .

(٣) الآيات ١٤٩-١٥٧ من سورة الصافات .

إن هؤلاء الجاهلين ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، إنما قالوا ما قالوا تقليدا لأهل الضلال الذين سبقوهم ، فمن عرف الله علم إنه تعالى متصف بصفات الجلال والكمال والجمال ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (١).

﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (٢).

قوله تعالى : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ :

أى ما أعظمها من حكمة ، وما أكبرها من جناية تناهت في القبح عندما يدعون أن الله ولدا وهذه الكلمة لا تتجاوز الأفواه ، إذ الحقائق تكذبها ، والحجج تدحضها ، والبراهين تمحوها ، فإنهم ما يقولون إلا كذبا لا أساس له من الصحة ، ولا نصيب له من الواقع .

قوله تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ :

هذا تصبير من الله تعالى لرسوله على أذى قومه ، فقد دفعه حرصه عليهم أن يحزن ، قال له مولانا : لا تهلك نفسك على هؤلاء بعدما كذبوا هذا القرآن ، ولا تحزن عليهم ، ولأنك في ضيق مما يكرهون ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾ (٣).

قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا * وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ :

قال قتادة عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فأنظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) (٤).

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ :

أى وإنى لمصيرها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، فنجعل كل شيء عليها هالكا صعيدا جرزا ، لا ينبت ولا ينتفع به .

قال ابن عباس ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ يقول : يهلك كل شيء عليها ويبعد .

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٢) سورة الإخلاص .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

(٤) أخرجه البخارى في الرقاق : ١٧ ، ١١ . والترمذى في الفتن : ٢٦ . وفي الزهد : ٤١ . والنسائى في البركة : ٥٠ ، ٨٠ وابن ماجه في الفتن : ١٩ . والدارمى في الرقاق : ٣٧ . والإمام أحمد في ٣ : ٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ . وفي ٦ : ٦٨ ، ٣٦٤ ، ٣٧٨ .

قال قتادة : الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات .

قال ابن زيد : الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

وقال محمد بن أسحق : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ يعني الأرض وإن ما عليها لفان وبائد ، وإن المرجع لإلى الله ، فلا تأس ولا يحزنك ماتسمع وترى .

أصحاب الكهف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَالِ الْبُتُورِ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ آفَاقٍ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعَزَّزْنَاهُمْ بِمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاقًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِبَتْسَاءِ لُؤَا بَيْنِهِمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا

عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذِ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرَّ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

المفردات : ﴿ أم ﴾ : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر . وهو بمعنى بل وهمة الاستفهام أى بل أحسبت والخطاب فى الظاهر للنبي عليه الصلاة والسلام . والمراد غيره .
 ﴿ والكهف ﴾ : النقب المتسع فى الجبل فإن لم يكن متسعاً فهو غار . ﴿ والرقيم ﴾ : لوح حجرى رقت فيه أسماءهم كالألواح الحجرية المصرية التى يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم العظماء . ﴿ أوى إلى المكان ﴾ : اتخذ مأوى ومكاناً له . ﴿ والفتية ﴾ : واحد من فتى وهو الشاب الحدث وقد كانوا من أبناء اشراف الروم وعظمائهم . ﴿ وهىء ﴾ : أى يسر . ﴿ والرشد ﴾ : (بفتحين وضم فسكون) الهداية إلى الطريق الموصل للمطلوب . ﴿ فضرينا على آذانهم ﴾ : أى ضربنا عليها حجاً يمنع السماع كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها قبة والمراد أثمانهم نومة لاتبهم الأصوات الموقظة . ﴿ عددا ﴾ : أى ذوات عدد والمراد الكثير لان القليل لا يحتاج إلى العد غالباً ﴿ بعثناهم ﴾ : أى ايقظناهم وأثرناهم من نومهم . ﴿ والحزبين ﴾ : هما الحزب القائل لبشاً يوماً أو بعض يوم والحزب القائل ربكم اعلم بما لبثتم . ﴿ وأحصى ﴾ : أى اضبط لأوقات لبثهم . ﴿ والأمد ﴾ : مدة لها حد وغاية . ﴿ النبأ ﴾ : الخير العظيم وبالحق : أى بالصدق ﴿ الربط ﴾ : الشد وربطت الدابة : شدتها بالرباط . ﴿ والمربط ﴾ : الحبل وربط الله على قلبه أى قوى عزيمته . ﴿ قاموا ﴾ : أبى وقفوا بين يدى ملكهم الجبار دقيانوس . ﴿ إلهاً ﴾ : أى معبوداً آخر . ﴿ اتخذوا من دونه آلهة ﴾ : أى نحتوا أصناماً وعبدوها . ﴿ والسلطان ﴾ : الحجة . ﴿ واليّن ﴾ : الظاهر . ﴿ والاعتزال والتعزل ﴾ : تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب . ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ : أى التجئوا إليه وينشر لكم : أى ييسط لكم . ﴿ المرفق ﴾ :

ما يرتفع وينتفع به . ﴿ وتزاور ﴾ : تتنحي . ﴿ وذات اليمين ﴾ : أى جهة يمين الكهف .
 ﴿ وتقرضهم ﴾ : أى تعدل عنهم قال الكسائى : يقال : قرضت المكان : إذا عدلت عنه ولم تقر به .
 ﴿ فجوة ﴾ : أى متسع . ﴿ والإيقاظ ﴾ : واحدهم يقظ (بضم القاف وكسرها . ﴿ والرقود ﴾ :
 واحدهم راقد . أى نائم . ﴿ وباسط ذراعيه ﴾ : أى مادهما . ﴿ والوصيد ﴾ : فناء الكهف .
 ﴿ والرعب ﴾ : الخوف يملأ الصدر . ﴿ بعثاهم ﴾ : أى أيقظناهم . ﴿ لبثتم ﴾ : أى أقمت .
 ﴿ والورق ﴾ : الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة . ﴿ وأزكى ﴾ : أجود وأطيب .
 ﴿ وليتلطف ﴾ : أى يتكلف اللطف فى المعاملة كى لاتقع خصومة تجر إلى معرفته . ﴿ ولا يشعرون ﴾ :
 أى لا يفعلن : أى لا يفعلن ما يؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم . ﴿ إن يظهروا عليكم ﴾ :
 أى إن يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم وأصل العثور السقوط للوجه يقال عثر عثورا وعتارا إذا سقط
 لوجهه ويقال فى المثل (من سلك الجدد أمن العثار) . ثم أستعمل فى الاطلاع على أمر من غير طلب له .
 ﴿ والساعة ﴾ : يوم القيامة حين يبعث الله الخلائق جميعاً للحساب والجزاء . ﴿ والتنازع ﴾ :
 التخاصم . ﴿ والذين غلبوا على أمرهم ﴾ : هم رؤساء البلد لأنهم هم الذين لهم رأى فى مثل هذا .
 ﴿ المسجد ﴾ : معبد المؤمنين من تلك الأمة وكانوا نصارى على المشهور . ﴿ والرجم ﴾ : القول بالظن
 ويقال لكل ما يخفى : رجم فيه وحديث مرجوم ومرجم . ﴿ والغيب ﴾ : وأغاب عن الإنسان فالمراد
 ان يرمى الانسان ما غاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة كما يقال فلان يرمى بالكلام رميا : أى يتكلم من غير
 تدبر . والمراد هنا القول بالظن والتخمين . ﴿ المرء ﴾ : الحاجة فيما فيه مرية وتردد . والمرء الظاهر :
 مالا تعمق فيه بالا يكذبهم فى تعيين العدد بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه فيجب عدم الجزم به . ﴿ ولا
 تستفت ﴾ : أى لاتطلب الفتيا منهم .

قصة أهل الكهف

روى أن النصارى عظمت فيهم الخطايا ، وطغت ملوكهم ، حتى عبدوا الأصنام ، وأكروهوا الناس
 على عبادتها ، وأصدر (الملك دقيانوس) الأوامر المشددة فى ذلك ومعاقبة من يخالفه ، وأراد أن يلزم فتية
 من أشراف قومه عبادتها ، وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على دينهم ، فترع ثيابهم وحلبهم ، ولكنه
 رحم شبابهم فأمهلهم لعلمهم يثوبون إلى رشدهم ، وهكذا ذهب الملك إلى مدن أخرى ليبحث أهلها على
 عبادتها وإلا قتلوا .

أما الفتية فإنهم انطلقوا إلى كهف قريب من مدينتهم (أقسوس أو طرسوس) فى جبل يدعى
 (نيخايوس) وأخذوا يعبدون الله فيه حتى إذا هجم عليهم (قيانوس) وهم يقتلهم هربوا وماتوا
 طائعين ، وقد كانوا سبعة ، فلما فروا فى الطريق إلى الكهف تبعهم راع ومعه كلب فجلسوا هناك يعبدون
 الله ، وكان من بينهم امرؤ يدعى (تملیخا) يتناح لهم طعامهم وشرابهم ، ويبلغهم أخبار دقيانوس الذى
 لا يزال مجدداً فى طلبهم ، إذا عاد من مطافه ووصل إلى مدينتهم بحث عن هؤلاء العباد والنساك ليذبهم ،
 أو يسجدوا للأصنام .

فسمع بذلك تلميخاً بينا كان يشتري لهم الطعام خفية فأخبرهم فبكوا ، ثم ضرب الله على آذانهم فناموا ، وتذكرهم دقيانوس فهدد آباءهم إن لم يحضروهم فدلوه عليهم ، وقالوا انهم في الكهف فتوجه إليهم فهده عليهم ليموتوا هناك وينتهى الأمر على ذلك .

وقد كان في حاشية الملك رجلان يكتبان إيمانها وهما بيدروس وروناس ، فكتبا قصة هؤلاء الفتية سرا في لوحين من حجر ، وجعلاهما في تابوت من نحاس ، وجعلتا التابوت في البنيان ليكون ذلك عظة وذكرى لمن سيحيى من بعد .

ثم مضت قرون يتلو بعضها بعضا ، ولم يبق لدقيانوس ذكر ولا أثر وبعدئذ ملك البلاد صالح يسمى بيدروس ، دام ملكه ٦٨ سنة ، وانقسم الناس في شأن البعث والقيامة فرقتين : فرقة مؤمنة به وأخرى كافرة ، فحزن الملك لذلك حزنا شديدا وضرع إلى الله أن يرى الناس آية يرشد بهم بها إلى أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وقد خطر إذ ذاك ببال راع يسمى (أولياس) أن يهدم باب الكهف ، ويبنى به حظيرة لغنمه ، فلما هدمه استيقظوا جميعا فجلسوا مستبشرين ، وقاموا يصلون .

ثم قال بعضهم لبعض : كم لبثتم نياما ؟ قال بعضهم : لبثنا يوماً أو بعض يوم . وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحداكم بورقكم (الورق الفضة) هذه إلى المدينة فليُنظر أيها أذكى طعاما وليحضر لنا جانباً منه ، فذهب تلميخا كما اعتاد من قبل ليشتري لهم الطعام وهو متلطف في السؤال ، مخف حذر من دقيانوس .

وبينا هو ماش سمع اسم المسيح ينادى به في كل مكان ، فحدث نفسه وقال : عجباً لم لم يذبح دقيانوس هؤلاء المؤمنين ؟ وبقي حائراً دهشاً وقال : ربما أكون في حلم ، ولعل هذه ليست مدينتنا فسأل رجلاً : ما اسم هذه المدينة قال (أفسوس) وفي آخر مطافه تقدم إلى رجل فأعطاه ورقاً ليشتري به طعامه ، فدهش الرجل من نوع هذا النقد الذي لم يره من قبل ، وأخذ يقلبه ، ويعطيه إلى جيزته وهم يعجبون منه ، ويقولون له : أهذا من كنز عثرت عليه ، فإن هذه الدراخم من عهد دقيانوس ، وقد مضت عليه حقبة طويلة .

ثم أخذوه وقادوه إلى حاكمي المدينة فظن في بادئ الأمر أنهم ساقوه إلى دقيانوس ، ولكن لما عرف أنه لم يؤت به إليه زال عنه الكرب ، وجفت مدامعه ، ثم سأله حاكما المدينة وهما أريوس وطنطيوس : أين الكنز الذي وجدت يافتي ؟

وبعد حوار بينه وبينهما ذكر لهما خبر الفتية ودقيانوس ، وأن حديثهما كان أمس ، وإن كان لديكما ريب من أمرى فهذا هو ذا الكهف ، فاذهبا معي لتريا صدق ما أقول ، فسارا معه حتى وصلا إلى باب الكهف وتقدمهما تلميخا ، فأخبرهما بالحديث كله ، فدخلهما العجب حين علما أنهم ناموا تسعا وثلاثمائة سنة ، وأنهم أوقفوا ليكونوا آية للناس .

ثم دخل أريوس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم ، وبداخله لوحان مكتوب عليهما قصة هؤلاء الفتية ، وكيف هربوا من دقيانوس حرصاً على عقيدتهم ودينهم ، فسد عليهم بالحجارة .

ولما رأى أريوس ومن معه هذا القصص خروا لله سجداً ، وأرسلوا بريدًا إلى ملكهم أن عجل واحضر لترى آية الله في أمر فتية بعثوا بعد أن ناموا ثلاثمائة سنة .

ثم سار الملك ومعه ركب من حاشيته وأهل مدينته ، حتى أتوا مدينة أفسوس ، وكان يوماً مشهوداً ، وحين رأى الفتية خر ساجداً لله ، ثم أعتنقهم وبكى وهم لا يزالون يسبحون ، ثم قال الفتية له : أيها الملك نستودعك الله ونعيذك من شر الإنس والجن ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وقبضت أرواحهم .

فأمر الملك أن يجعل كل منهم في تابوت من ذهب ، وحين جن الليل ونام رآهم في منامه يقولون له : اتركنا كما كنا في الكهف ننام على التراب حتى يوم البعث ، فأمر الملك إن يوضعوا في تابوت من ساج ، وألا يدخل عليهم أحد بعد ذلك ، وأن يبنى على باب الكهف مسجد يصلى فيه الناس ، وجعل لهم ذلك اليوم عيداً عظيماً .

ذلك هو القصص الذى جعله النصرارى دليلاً على البعث .

أما القرآن الكريم فإنه يقول إن آياتى على البعث وإعادة الأرواح بعد الموت ليست مقصورة على هذا القصص وحده ، فأياتى عليه لأتعد ولا تحصى ، فاقروا صحائف هذا الوجود ، ولا تقصروا أمركم على صحائف أهل الكهف والرقيم واجعلوا انظاركم تتجه إلى ماحواه الكون لا إلى ماكتب فى القصص والحكايات ، وإن كانت فيها الدلائل والآيات .

قوله تعالى : ﴿ أم حسب أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ :

أى لا تحسب أن قصة أصحاب الكهف والرقيم المذكورة فى الكتب السالفة حين استمروا أحياء أمداً طويلاً عجيبه بالاضافة إلى ما جعلناه على ظهر الأرض من الزينة ، فليست هى بالعجب وحدها من بين آياتنا ، بل زينة الأرض وعجائبها أبدع وأعجب من قصة أصحاب الكهف ، فإذا وقف علماء الأديان الأخرى لدى أمثالها دهشين حائرين ، فأنا أدعوك وأمتك إلى ماهو أعظم منها ، وهو النظر فى الكون وعجائبه من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب إلى نحو أولئك من الآيات الدالة على قدرة الله ، وانه يفعل ما يشاء ، لا معقب لحكمه .

أما القصص وغرائبها فلا تكفى للوصول إلى أبواب الخير والسعادة التى يطمع إليها الإنسان ، ويجعلها مثله العليا ليفوز بخيرى الدنيا والآخرة ، فابحث عما نقش فى صحائف الأكوان ، لافى صحائف الكهوف والغيران .

قال الزجاج :

أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ﴾ :

أى اذكر أيها الرسول حين أوى أولئك الفتية إلى الكهف هربا بدينهم من أن يفتنهم عباد الأصنام والأوثان ، وقالوا إذ ذاك : ربنا يسر لنا بما نبتغى من رضاك وطاعتك رشدا من أمرنا ، وسدادا إلى العمل الذى نحب ، وارزقنا المغفرة ، والأمن من الأعداء .

﴿ فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ﴾ :

أى فضربنا على آذانهم حجاباً يمنعهم السماع ، وأتمناهم نوماً لا ينبههم فيه مختلف الأصوات فى الكهف سنين كثيرة معدودة .

﴿ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ :

أى ثم أيقظناهم من رقدتهم لنعلم أى الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم أضبط فى الإحصاء والعد لمدة هذا اللبث فى الكهف .

وخلاصة ذلك :

إننا بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبر حالهم لنرى أيهم أحصى لما لبثوا أمدا ، فيظهر لهم عجزهم ، ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا ماصنع الله بهم من حفظ أبدانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه ، ويستبصروا به فى أمر البعث ، ويكون ذلك لطفاً لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم .

﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ :

أى نحن ننبئك نبأ هؤلاء الفتية الذين آووا إلى الكهف نبأ حقاً لا محل للريبة فيه ، وفى هذا إيماء إلى أن نبأهم كان معروفا لدى العرب على وجه ليس بالصدق ، ويدل على ذلك قول أمية بن الصلت :

وليس بها إلا الرقيم نجاورا

وضيدهم والقوم فى الكهف هُجْدُ

ثم فصل ذلك بقوله :

﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ :

أى إنهم شباب آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، بالتشيت على الايمان ، والتوفيق للعمل الصالح ، والانقطاع إلى الله ، والزهد فى الدنيا .

وقد جرت السعادة أن الفتيان أقبل للحق وأهدى سبيلا من الشيوخ الذين قد انغمسوا في الأديان الباطلة ، ومن ثم كان أكثر الذين استجابوا لله ورسوله ﷺ شبانا ، وبقي الشيوخ على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾^(١)

أو قوله ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾^(٢)

وقوله : ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾^(٣)

في أي زمن كان قصص أهل الكهف ؟

رجح ابن كثير أن قصص أهل الكهف كان قبل مجيء النصرانية لابعدها ، كما رواه كثير من المفسرين متبعين ما أثر عن العرب ، والدليل على ذلك أن أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم ، ويعنون بها فقد روى عن ابن عباس : أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ .

فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء الفتية ، وعن خبر ذى القرنين ، وعن الروح ، وفي هذا أعظم الأدلة على أن ذلك كان محفوظا عند أهل الكتاب ، وأنه مقدم على النصرانية .
قوله تعالى :

﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ :

أي وأهملناهم قوة العزيمة ، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان ، حتى عزفت نفوسهم عما كانوا عليه من خفض العيش ، والرغبة عنه ، وقالوا حين قاموا بين يدي الجبار دقيانوس إذ عاتبهم على تركهم عبادة الأصنام . ربنا رب السموات والأرض ، ورب كل مخلوق .

ثم أردفوا تلك المقالة البراءة من إله غيره فقالوا : ﴿ لن ندعوا من دونه إلها ﴾ :

أي لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلها لا على طريقة الاستقلال ، ولا على سبيل الاشتراك ، إذ لا رب غيره ولا معبود سواه .

وقد أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الألوهية والخلق ، وبالجملة الثانية إلى توحيد الربوبية والعبادة ، وعبدة الأصنام يقرون بتوحيد الأولى ، ولا يقرون بتوحيد الثانية .

(٣) الآية ٤ من سورة الفتح .

(١) الآية ١٧ من سورة محمد .

(٢) الآية ١٢٤ من سورة التوبة .

بدليل قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾^(١)

وقوله سبحانه حكاية عنهم : ﴿ إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ﴾^(٢)

وكانوا يقولون في تلييتهم في الحج : لبيك لا شريك لك : إلا شريكاً هولك تملكه وماملك

ثم عللوا عدم دعوتهم لغيره بقولهم : ﴿ لئن قلنا إذا شططا ﴾ :

أى إنا إذا دعونا غير الله لقد أبعدنا عن الحق ، وتجاوزنا الصواب .

وفي هذا إيماء إلى أنهم دعوا لعباده الأصنام ولعموا على تركها .

ثم حكى سبحانه عن أهل الكهف مقالة بعضهم لبعض فقال : ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه

آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ :

أى أن قومنا هؤلاء وإن كانوا أكبر منا سناً ، وأكثر تجربة قد أشركوا مع الله غيره ، فهلا أتوا

بحجة بينة على صدق مايقولون ، كما أتينا على صدق ما ندعى بالأدلة الظاهرة ، وإنهم لأظلم الظالمين فيما فعلوا وفيما افتروا .

ومن ثم قال : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ :

أى لا أظلم ممن افترى على الله الكذب ونسب إليه الشريك تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وإذا

اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً ﴾ :

أى وإذا فارقتموهم وخالفتموهم في عبادتهم غير الله ، ففارقوهم بأبدانكم واجتئوا إلى الكهف ، وأخلصوا لله العبادة في مكان تتمكنون منها بلا رقيب ولا حسيب ، وإنكم إن فعلتم ذلك فالله تعالى ييسر لكم الخير من رحمته في الدارين ، ويسهل لكم من أمر الفرار بدينكم والتوجه إليه في عبادتكم ما ترتفقون وتنتفعون به .

وقد قالوا ذلك ثقة بفضل الله تعالى ورجاء منه ، لتوكلهم عليه وإكمال إيمانهم به .

أخرج الطبراني وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب وقرأ : ﴿ قالوا سمعنا

فنى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾^(٣) .

﴿ وإذا قال موسى لفتهاه ﴾ ، ﴿ إنهم فتية ﴾ .

ثم بين سبحانه حالهم بعد أن أووا إلى الكهف فقال : ﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن

كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ﴾ :

(٣) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٣ من سورة الزمر .

(١) الآية ٢٥ من سورة لقمان .

أى إنك أيها المخاطب لو رأيت الكهف لرأيت الشمس حين طلوعها تميل عنه جهة اليمين ، ورأيتها حين الغروب تتركهم وتعديل عنهم جهة الشمال ، والحال أنهم في وسطه ومتسعه فيصيبهم نسيم الهواء وبرده .

وخلاصة ذلك :

إنهم طوال نهارهم لاتصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها ، إذ كان باب الكهف في مقابلة بنات نعش ، فهو إلى الجهة الشمالية ، والشمس لاتسامت ذلك أبداً ، لأنها لاتصل إلى أبعد من خط السرطان ، وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون الشمس من ورائها لا أمامها فيكون الظل مائلا جهة الشمال طول السنة ، كما يعلم ذلك من علم الفلك .

وإيضاح ذلك أنه لو كان باب الكهف في ناحية الشرق لما دخل إليه شيء منها حين الغروب ، ولو كان باب الكهف في ناحية الجنوب لما دخل شيء حين الطلوع ولا الغروب ، وما تزاور الفياء لائميها ولا شمالا ، ولو كان جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ، ولا تزال فيه إلى الغروب .

مكان الكهف

وللمفسرين في تعيين مكان الكهف أقوال : ف قيل هو قريب من إيلياء « بيت المقدس » ببلاد الشام . وقال ابن اسحاق : عند « نينوى » ببلاد الموصل وقيل ببلاد الروم ولم يرقم إلى الآن الدليل على شيء من ذلك ولو كان لنا في معرفة ذلك فائدة دينية لأرشدنا الله إليه كما قال ﷺ : (ما تركت شيئا يقرّبكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا وقد أعلمتكم به) .

﴿ ذلك من آيات الله ﴾ :

أى إن هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم ، وبملكهم مع حداثتهم وإيواءهم إلى كهف تلك صفته ، بحيث تزاور الشمس عنهم طالعة وتقرضهم غاربة ، وإخبارك بقصصهم كل ذلك من آيات الله الكثيرة في الكون الدالة على كمال قدرته ، وعلى أن التوحيد هو الدين الحق ، وعلى أن الله يكرم أهله .

ثم بين أن هدايتهم إلى التوحيد كانت بعناية الله ولطفه فقال : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ :

أى من يوفقه الله للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق كأصحاب الكهف فهو المهتدى الذى أصاب سبيل الحق ، وفاز بالحظ الأوفر في الدارين .

وفي هذا إيماء إلى أن أصحاب الكهف أصابوا الصواب ، ووقفوا لتحقيق ما أملوا من نشر الرحمة

عليهم ، وتهيئة المرفق . ﴿ ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ : أى ومن يضلله الله لسوء استعدادة وصرف اختياره إلى غير سبل الهدى والرشاد ، فلن تجد له ابداً خليلاً ولا حليفاً يرشده لإصابة سبل الهداية ، وتخلصه من الضلال ، لأن التوفيق والخذلان بيد الله يوفق من يشاء من عباده ويخذل من يشاء . وفى هذا تسليية لرسوله وإرشاد له إلى انه لا ينبغي له أن يحزن على إدبار قومه عنه ، وتكذيبهم إياه ، فإن الله لو شاء لهداهم وآمنوا .

﴿ وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ﴾ :

أى ولو رأيتم لظننتهم فى حال يقظة لانفتاح أعينهم وهم نيام ، كأنهم ينظرون إلى من أمامهم ، ولما للنوم من الحال الخاصة به التى يستبينها الناظر بادية ذى بداء كاسترخاء المفاصل والأعضاء ولا سيما العينان والوجه .

﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ :

ونقلب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ، كى ينال روح النسيم جميع أبدانهم ، ولا يتأثر مايلى الأرض منها بطول المكث .

﴿ وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ :

أى وكلهم ملق يديه على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين بفناء الكهف ، كما روى عن ابن عباس ، وقيل المراد بالوصيد الباب .

﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ﴾ :

أى لو شاهدتهم فى رقدتهم التى رقدوها فى الكهف لأدبرت عنهم هارباً فاراً منهم .

﴿ وملكنت منهم رعباً ﴾ :

أى وملكنت نفسك حين اطلاعك عليهم خوفاً وفزعاً ، لأن الله قد ألبسهم هيئة ووقارا ، كى لا يصل إليهم واصل ، ولا تلمسهم يد لأمس ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه فى الحين الذى أراد ان يجعلهم فيه عبرة لمن شاء من خلقه ، وآية لمن أراد الاحتجاج عليهم من عباده ، وليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ :

أى كما أرقدنا هؤلاء الفتية فى الكهف وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفن على مر الأيام بقدرتنا بعثناهم من رقدتهم ، وأيقظناهم من نومهم ، لنعرفهم عظيم سلطانتنا ، وعجيب فعلنا فى خلقنا ، ولizardادوا بصيرة فى أمرهم الذى هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة ،

وإخلاصهم العبادة لله الواحد القهار ، إذا تبينوا طول الزمان عليهم وهم بهيئتهم حين رقدوا .

﴿ ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ :

أى ولتكون عاقبة أمرهم أن يسأل بعضهم بعضا ، فيقول قائل منهم لأصحابه : كم لبثتم ؟ ذاك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم .

﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ :

أى فأجابه الآخرون ، فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ظنا منهم إن ذلك كذلك كان . وإيضاح هذا أنهم لم يتحققوا مقدار لبثهم ، فهم لا يدرون مقدار ذلك اللبث أيوم هو أو بعض يوم ؟ لأن لوثة النوم وظواهره لم تذهب من بصرهم وبصيرتهم ، فلم ينظروا إلى الأمارات التى تدل على ذلك المقدار الذى يظن انه قد كان .

وأكثر المفسرين على أن دخولهم فى الكهف كان أول النهار واستيقاظهم كان آخر النهار .

﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ :

أى وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم ، أى أنتم لا تعلمون فترة لبثكم ، بل الله هو الذى يعلمها ، وهذا من الأدب البارع فى الرد على الأولين بأحسن أسلوب ، وأجمل تعبير .

وحين علموا أن الأمر ملتبس عليهم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : ﴿ فابعثوا أحداكم بورقكم هذه إلى المدينة ﴾ :

أى فابعثوا بدراهمكم هذه إلى المدينة وهى طرسوس ، كما جزم بذلك فخر الدين الرازى .

وفى قولهم ﴿ هذه ﴾ إشارة إلى أن القائل كان قد احضرها ليناولها بعض أصحابه .

وإلى أن التأهب لأسباب المعاش بحمل الدراهم ونحوها لمن خرج من منزله ، لا ينافى التوكل على الله كما جاء فى الحديث : ﴿ اعقلها وتوكل ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ فلينظر أيها أركمى طعاما فليأتكم برزق منه ﴾ :

أى فليبصر أى الأطعمة أجود وألذ فليأتكم بمقدار منه . ﴿ وليتلطف ولا يشعروا بكم أحدا ﴾ :

أى وليتفرق فى دخول المدينة ، وفى شرائه ، وفى إيابه منها ، ولا يخبرن بمكانكم أحدا من أهلها .

ثم ذكروا تعليل الأمر والنهى السالفين بقولهم : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يوجوهكم أو يعيدوكم فى

ملتهم ﴾ :

أى أن الكفار إن علموا بمكانكم ولم تفعلوا ما يريدون منكم ، بل ثبتم على إيمانكم إما أن يقتلوكم رميا بالحجارة .

وكان ذلك هو المتبع في الأزمنة الغابرة ، فيمن يعلن خلاف ما عليه الجماهير في الأمور الدينية والسياسية التي لها شأن في الدولة .

وإما أن يعيدوكم إلى ملة آبائكم التي هم مستمسكون بها .

﴿ ولن تفلحوا إذا أبدا ﴾ :

أى وإن دخلتم في ملتهم ولو بالاكراه والقسر ، لن تفوزوا بخير لافي دنياكم ولا في آخرتكم ، إذ ربما استدرككم الشيطان إلى أن تستحسنوا ما ستعتقونه من ذلك الدين الجديد ، وتستمرئوه فتستمروا عليه ، فيكون قد كتب عليكم الشقاء عند ربكم ، والخذلان الذى لا خذلان بعده .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ :

أى وكما بعثناهم بعد طول رقدهم كهيتهم حين رقدوا ليتساءلوا بينهم ، فيزدادوا بصيرة بعظيم سلطانه تعالى ، ومعرفة حسن دفاع الله عن أوليائه ، أعثرنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا في شك من قدرة الله على إحياء الموتى ، وفي مرية من إنشاء أجسام خلقة كهيتهم يوم قبضهم بعد البلى ، ليعلموا أن وعد الله حق ، ويؤمنوا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، إذ لاحجة لمن أنكرها إلا الاستبعاد ، ولكن وقوع ذلك الأمر العظيم وعلمهم به مما يخفف من غلوائهم ، ويكبح جماح إنكارهم ، ويردهم إلى رشدهم .

ذلك أن حال هؤلاء الفتية في تلك الحقبة الطويلة وقد حبست عن التصرف نفوسهم ، وعُطلت مشاعرهم وحواسهم ، وحفظت من التحلل والتفتت أبدانهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حالتها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدبير أبدانها ، فرأت الأمور كما كانت ، والأعوان هم الأعوان ، ولم تنكر شيئاً عهدته في مدينتها ، ولم تتذكر حبسها المبدى الطويل عن التصرف في شئونها ، وحال الذين يقومون من قبورهم بعد ما تعطلت مشاعرهم ، وحبست نفوسهم من واد واحد في الغرابة ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند .

ووقوع الأول يزيل الارتباب في إمكان وقوع الثانى ، ولا يبقى بعد ذلك شك في أن وعد الله حق ، وأن الله سيبعث من في القبور ، فيرد عليهم أرواحهم ويجازيهم جزاء وفاقا ، بحسب أعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

قوله تعالى : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ :

أى وكذلك أطلعنا عليهم بيدروس وقومه حين ينازع بعضهم بعضاً في أمر البعث ، فمن مقر به وجاحد له ، وقائل تبعث الأرواح دون الأجساد ، ففرح الملك وفرحوا بآية «الله على البعث» . وزال

ماينهم من الخلاف في أمر القيامة ، وحمدوا الله إذ رأوا ما رأوا مما يشتهوا ، ويزيل كل ريب فيها .
ثم حكى آراء القوم في شأنهم بعد اطلاعهم عليهم فقال :

﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ :

أى أنهم انقسموا في شأنهم فريقين ، فريق يقول : نسد عليهم باب الكهف ونذرهم حيث هم ، وفريق يقول : نبني عليهم مسجداً يصل في فيه الناس ، وقد غلب هذا الفريق الفريق الأول في الرأي .
وقوله : ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ : جملة معترضة من كلامه تعالى ، رداً للخاصين في أمرهم ممن اعثروا عليهم ، أو ممن كان في عهده ﷺ من أهل الكتاب في بيان أنسابهم وأسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم .

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد منهي عنه أشد النهي ، حتى ذكر ابن حجر في كتابه الزواجر أنه من الكبائر .

روى أحمد وأبو داود عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : (لعن الله تعالى زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)^(١) وزاد مسلم (ألا وأن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإني أنهاكم عن ذلك)^(٢) .

وعن رسول الله ﷺ قال : (لعن الله تعالى اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)^(٣) .

وعن رسول الله ﷺ قال : (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد)^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ .

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز : ٧٨ . والترمذي في الصلاة : ١٢١ . والنسائي في الجنائز : ١٠٤ . والإمام أحمد في ١ : ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ .

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة : ٢١٣ ، ١٢١ . وأبو داود في الوتر : ١ . والنسائي في الجنائز : ١٠٤ ، ١٠٦ . وابن ماجه في الإقامة : ١٨٦ . والدارمي في الصلاة : ١٢٠ . والإمام أحمد في ٢ : ٦ ، ١٢٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز : ٦١ ، ٩٦ . ومسلم في المساجد : ١٩-٢٣ . والنسائي في المساجد : ١٣ . والإمام مالك في السفر : ٨٥ . والإمام أحمد في ٥ : ٢٠٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة : ٤٨ ، وفي الجنائز : ٦١ ، ٩٦ .

أى سيقول بعض الخائضين من أهل الكتاب ذلك ، فقد روى أن نصارى نجران تناظروا مع رسول الله ﷺ فى عدد أهل الكهف ، فقالت الملكانية (أصحاب الملك) : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالت النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وروى هذا عن ابن عباس ، وهو الحق بدليل أنه تعالى حكم على القولين السابقين بأنهما رجم بالغيب ، فأرشد ذلك إلى أن الحال فى الأخير بخلافه ، وأنهم إنما قالوه عن ثبات علم ، وطمأنينة نفس .

﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ :

فى هذا ارشاد لنا إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم الى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم ، فإن أطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا توقفنا ولم نجزم بشيء .
﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ :

أى ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس .

روى قتادة عن ابن عباس أنه قال : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل كانوا سبعة سوى الكلب ، ولم يرد فى الصحيح عن النبى ﷺ شيء فى ذلك .

وفى هذا دلالة على أن المهم ليس هو معرفة العدد ، بل المهم الاعتبار بذلك القصص ، وبما يكون نافعاً لعقولنا وتطهير أخلاقنا ورقينا فى حياتنا الدنيوية والأخروية .

وبعد أن ذكر سبحانه هذا القصص ، نهى رسول الله ﷺ عن شيئين : المراء فى أمرهم ، والاستفتاء فى شأنهم فقال : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ :

أى فلا تجادل فى شأن الفتية إلا جدلاً سهلاً لنا ، وقص عليهم ما جاء فى الكتاب الكريم دون تكذيب لهم فى تعيين العدد ولا تجهيل لهم فى الحديث ، إذ لا يترتب على ذلك كبير فائدة ، لأن المقصد من القصة هو العظة والاعتبار ، ومعرفة أن البعث حاصل لا محالة وهذا لا يتوقف على عدد معين ، إلى أن ذلك مما يخل بمكارم الأخلاق التى بعث لتمامها ، ونحو الآية قوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ (١) .

﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ :

أى ولا تستفت النصارى فى شأنهم فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم ، رجماً بالغيب من غير استناد إلى دليل قاطع ، ولا نص صريح ، وقد جاءك ربك بالحق الذى لا مرية فيه ، فهو الحاكم المقدم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال السالفة .

وفى الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شيء من العلم .

قوله تعالى : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ .

المناسبة وإجمال المعنى

جاءت هاتان الآيتان إرشاداً وتأديباً من الله لرسوله ﷺ ، يعلمه بأنه إذا أراد أن يخبر عن شيء سيفعله في مستأنف الأيام ، أن يقرن قوله بمشيئة علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما سيكون . وجاءتا معترضتين أثناء القصة لما تضمنته من تعليم عباده تفويض الأمور كلها إليه ، وبيان أنه لا يحدث في ملكه إلا ما يشاء .

روى « أنهما نزلتا حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فقال عليه الصلاة والسلام : غدا أخبركم ، ولم يستثن (لم يقل إن شاء الله) فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً ، فشق عليه وكذبت قريش .

﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ :

أى ولا تقولن أيها الرسول لشيء إني سأفعل ذلك غداً إلا أن تقول : إن شاء الله ، ذاك أنه ربما مات المرء قبل مجيء الغد ، أو ربما عاقه عائق عن فعله فإذا لم يقل إن شاء الله صار كاذباً في ذلك الوعد ونفر الناس منه .

﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ :

أى واذكر مشيئة ربك إذا فرط منك نسيان ثم تذكرت ذلك ، وهذا أمر بالتذكرك حين التذكر ، سواء أطلال الفصل أم قصر .

﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ :

أى وقل عسى أن يوفقني ربي لشيء أقرب إرشاداً للناس ، وأظهر حجة من نأى أهل الكهف . وقد حقق الله له ذلك ، فاتاه من الآيات ما هو أعظم من ذلك ، كقصص الأنبياء مع أمهم على توالى العصور ومر الأيام .

وخلاصة ذلك . اطمع من ربك أن يهديك لأقرب مما أرشدك إليه خيراً ومنفعة في ضمن ما ألقى إليك من الأوامر والنواهي ، وقد استجاب الله دعاءه ، فهداه فيما أنزل عليه إلى ما هو خير منفعة ، وأجدى فائدة للمسلمين في دنياهم وآخرتهم ، وآتاهم من الخير العميم ما جعلهم به خير أمة أخرجت للناس .

ثم بين سبحانه ما أجمل في قوله : ﴿ فضرنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾ ، فقال

سبحانه ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ :

أَيُّ وَلَبِثُوا فِي الْكَهْفِ حِينَ ضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سَنَةٍ عَلَى حَسَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ عَلِمُوا قَوْلَكَ السُّؤَالَ عَنْ شَأْنِهِمْ ، وَتِسْعًا زَائِدَةً عَلَى حَسَابِ قَوْمِكَ الَّذِينَ سَأَلُوكَ عَنْ ذَلِكَ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي هَذَا الْبَيَانِ مَعْجَزَةٌ لِرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ وَلَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يَدْرُسِ الْحِسَابَ وَلَا الْهَنْدَسَةَ وَلَا الْفَلَكَ ، فَمَنْ أَيْنَ لَهُ أَنْ كُلَّ مِائَةٍ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ تَزِيدُ ثَلَاثَ سِنِينَ قَمَرِيَّةٍ ، وَكُلُّ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ سَنَةً شَمْسِيَّةٍ تَزِيدُ سَنَةً قَمَرِيَّةٍ . وَكُلَّ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ تَزِيدُ نَحْوَ أَحَدٍ عَشَرَ يَوْمًا عَلَى السَّنَةِ الْقَمَرِيَّةِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ أَعْلَمَهُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ بِمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ ، وَهَذَا لِأَقْرَبِ مِنْ هَذَا رَشْدًا ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يَلْفَتُ الْأَنْظَارَ إِلَى عِلْمِ مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا كَضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ عَلَى وَجْهِهَا ، وَمَا نَتَجَّ عَنْ ذَلِكَ الضَّوُّ مِنْ بَهْجَةِ الْأَرْضِ وَزِينَتِهَا ، فَلَوْلَا اخْتِلَافُ الْفُصُولِ لَمْ يَكُنْ لِلْأَرْضِ زِينَةٌ ، وَلَا اخْتِلَافُ الْفُصُولِ إِلَّا بِتَقَلُّبِ أَحْوَالِ الشَّمْسِ وَطُلُوعِهَا مِنْ حَيْثُ لَا تَمُتُ ، فَمَا مِنْ حَيَوَانَ وَلَا نَبَاتٍ إِلَّا أَسْنُ حَيَاتِهِ ضَوْءُ الشَّمْسِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ ، كَمَا أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ لِيَهْدِينَا إِلَى نُورِ الْعِلْمِ وَيَقُولَ لَنَا : إِنْ النَّظَرَ فِيمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ زِينَةٍ أَقْرَبَ رَشْدًا مِنْ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ ، وَحِكَايَاتِ الْغَابِرِينَ .

فَكَمْ فِي الْعَوَالِمِ الْخَاطِئَةِ بِكُمْ مِنْ خَوَارِقَ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَذَرُوهَا ابْتِغَاءَ مَا يَقَعُ عَلَى أَيْدِي أَنْبِيَائِكُمْ وَأَوْلِيَائِكُمْ ، فَإِنِّي قَدْ أَرْسَلْتُ الْأَنْبِيَاءَ لِيُرْشِدُوكُمْ إِلَى مَلَكِيٍّ وَمَا فِي خَلْقِي مِنْ عَجَائِبَ ، وَمَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ إِلَّا بَعْضُ خَلْقِي : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ثُمَّ أَكَّدَ أَنَّ الْمُدَّةَ الْمَضْرُوبَ عَلَى آذَانِهِمْ فِيهَا هِيَ هَذِهِ الْمُدَّةُ فَقَالَ : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ :

أَيُّ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِهِمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَ بِمُدَّةِ لَبِثِهِمْ ، فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَحُومُ حَوْلَهُ شَكٌّ .

وَفَائِدَةٌ تَأْخِيرُ بَيَانَهَا الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُمْ تَنَازَعُوا فِيهَا أَيْضًا كَمَا تَنَازَعُوا فِي الْعَدَدِ ، وَعَلَى أَنَّ هَذَا بَيَانٌ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ اللَّهُ بِهِ نَبِيِّهِ لِيَكُونَ مَعْجَزَةً لَهُ ، وَجَاءَ قَوْلُهُ ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ :

أَيُّ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِهِمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَ بِمُدَّةِ لَبِثِهِمْ ، فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَحُومُ حَوْلَهُ شَكٌّ .

وَفَائِدَةٌ تَأْخِيرُ بَيَانَهَا الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُمْ تَنَازَعُوا فِيهَا أَيْضًا كَمَا تَنَازَعُوا فِي الْعَدَدِ ، وَعَلَى أَنَّ هَذَا الْبَيَانُ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ نَبِيِّهِ لِيَكُونَ مَعْجَزَةً لَهُ ، وَجَاءَ قَوْلُهُ ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ تَذِيلًا لِسَابِقِهِ ، لِيَكُونَ مُحَاكِيًا قَوْلَهُ فِي حِكَايَةِ عَدْدِهِمْ ﴿ قُلْ رُبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾ .

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى اخْتِصَاصِهِ بِعِلْمِ مَا لَبِثُوا دُونَ غَيْرِهِ فَقَالَ : ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ :

أى والله ما غاب فيهما ، وما خفى من أحوال أهلها ، لا يعزب عنه شيء منه ، فسلموا له علم ما لبثت الفتية في الكهف ، وإذا علم الخفى فيهما فهو بعلم غيره أدرى .

ومن ذلك العلم الغائب على كثير من العقول حساب السنة الشمسية والقمرية فقد غيبه الله عن بعض الناس ، ولم يطلع عليه إلا العارفين بحساب الأفلاك ومن ثم يعجبون من أمر نبهم ، ويعلمون أن هذا مبدأ زينة الأرض وزخرفها .

﴿ أبصر به وأسمع ﴾ :

هذا أسلوب فى اللغة يدل على التعجب والمبالغة فى الأمر الذى تتحدث بشأنه ، أى ما أبصر الله تعالى بكل موجود ، وأسمعه بكل مسموع ، فهو لا يخفى عليه شيء من ذلك ، وهذا أمر عظيم من شأنه أن يتعجب منه .

وفد ورد مثل هذا فى الحديث (ما أحلمك عمن عصاك ، وأقربك ممن دعاك ، وأعطفك على من سألك) .

﴿ ما لهم من دونه من ولى ﴾ :

أى ما خلقه دون ربهم الذى خلقهم - ولى يلى تدبير أمورهم وتصريفهم فيما هم فيه مصرفون .

﴿ ولا يشرك فى حكمه أحدا ﴾ :

أى إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ، تعالى الله وتقدس أسمائه سبحانه بيده الأمر كله وإليه ترجع الأمور ، وإذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار ، فكيف يتصور عاقل أن له شريكاً فى ذاته ، أو شبيهاً فى صفاته ، أو قسيماً فى أفعاله : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١) .

توجيهات إلهية

وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَأَصْبِرْ
نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا
أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي
الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ
أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلِّونَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَعِنٍ فِيهَا عَلَى
الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

المفردات : ﴿ لا مبدل ﴾ : أى لا مغير ، لكلماته أى لأحكامها ، فلا يستطيع أحد نسخ
أحكام ما جاء فى كتابه . ﴿ ملتحداً ﴾ : أى ملجأً تعدل إليه إذا أَلَمْتَ بك ملمة ﴿ واصبر نفسك ﴾ : أى
احبسها وثبتها . ﴿ بالغداة والعشي ﴾ : أى فى طرفى النهار ، وخصهما بالذكر ، لأنهما محل الغفلة ،
وفيهما يشغل الناس بأمر دنياهم . ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ : أى لا تصرف عينك النظر عنهم إلى
أبناء الدنيا ؛ والمراد لا تحتقرهم وتصرف النظر عنهم إلى غيرهم لثرائة منظرهم ، ﴿ تريد زينة الحياة
الدنيا ﴾ : أى تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الثراء ، ﴿ أغفلنا قلبه ﴾ : أى
جعلناه غافلاً ، ﴿ فرطاً ﴾ : أى تفريطاً وتضييعاً لما يجب عليه أن يتبعه من أمر الدين . ﴿ وأعتدنا ﴾ :
أى أعددنا وهيأنا ، ﴿ والسرادق ﴾ : الفسطاط أى الخيمة . شبه به ما يحيط بهم من لهب النار المنتشر
منها فى سائر الجهات ، ﴿ المهل ﴾ : دردىء الزيت أو ما أذيب من المعادن كالرصااص والنحاس ،
﴿ يشوى الوجوه ﴾ : أى ينضجها إذا قدّم ليشرب ، لشدة حره ، ﴿ ومرتفقاً ﴾ : أى متكأً ، يقال
مات فلان مرتفقاً أى متكأً على مرفق يده ، ﴿ وجنات عدن ﴾ : أى جنات إقامة واستقرار يقال عَدَنَ
بالمكان إذا أقام فيه واستقر ، ومنه المعدن لاستقرار الجواهر فيه ، ﴿ والأساور ﴾ : واحدها سوار ،
﴿ والسندس ﴾ : رقيق الديباج واحده سندسه . ﴿ والإستبرق ﴾ : ما غلظ منه . ﴿ الأرائك ﴾ :
واحدها أريكه سرير عليه حَجَله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص أهل الكهف ، ودل اشتغال القرآن عليه على أنه وحى من علام الغيوب ، أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه وتلاوته ، وألا يكثرث بقول القائلين له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، ثم ذكر ما يلحق الكافرين من النكال والوبال يوم القيامة ، وما ينال المتقين من النعيم المقيم كفاء ما عملوا من صالح الأعمال .

قوله تعالى : ﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ :

قال مجاهد : أى ملجأ .

وقال ابن جرير : إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله ، كما قال تعالى : ﴿ يأأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ (١) ، وقال : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ (٢) الآية ، أى سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة .

وفى الآية الكريمة : ﴿ واتل ما أوحى إليك ﴾ : أمرٌ بتلاوة الوحي المتلو وهو القرآن العظيم الذى لا تغيير لأحكامه ، فالله تعالى إذا أراد قضى المراد وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب : ﴿ أغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ (٣) .

فمن اعتصم به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، ومن استمسك به أدخله الله الجنة وكفاه كل مهمة ، ومن اعتصم بغيره أساخ الله الأرض من تحته ، وقطع الأسباب من فوقه ، ولا يبالي كيف أهلكه ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ (٤) .

فهو القوى المتين صاحب الركن الركين ، والجناب المتين ، عليه توكلنا ، وإليه أنبنا ، وإليه المصير . فاللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء همنا ، وذهاب حزننا .

قوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ :

قال مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص قال : « كنا مع النبى ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبى ﷺ : اطردهؤلاء لا يجترئون علينا . قال : كنا أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال

(٣) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٤٠ من سورة النور .

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٨٥ من سورة القصص .

ورجلان نسيتهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ (١) .

وفي فضل الغداة والعشي روى الإمام أبو داود الطيالسي بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (لأن أجالس قوما يذكر الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلى من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً) (٢) . فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس فبلغت ستة وتسعين ألفاً وههنا من يقول أربعة من ولد إسماعيل والله ما قال إلا ثمانية دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً .

وقال الحافظ أبو بكر البزار عن الأغر أبي مسلم وهو الكوفي « إن رسول الله ﷺ مر برجل يقرأ سورة الكهف فلما رأى النبي ﷺ سكت فقال النبي ﷺ : هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم » (٣) .

قال الامام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات) (٤) .

وقال الطبراني : عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : « نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴾ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ : الآية فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس ، وجاف الجلد ، وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم) .

هذا هو الإسلام وذاك نبيه الذي جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، إنه محرر العبيد الذي جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم ، أراد صناديد قريش أن يجعلوها عنصرية ، واستنكفوا أن يجالسوا فقراء المسلمين ، لكن الإسلام لا يزن الناس بمقيار الذهب والفضة فلا رنين ولا بريق ، إنما تقوى وعلم صالح ، ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (٥) .

كان طاغية الفاشية موسوليني يقول : إيطاليا فوق الجميع ، وكان هتلر طاغية النازية يقول : ألمانيا فوق الجميع ، وفرحوا بما أوتوا من العلم ، ونادى تشرشل : إنجلترا فوق الجميع ، لكن الإسلام حطم

(١) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه أبو داود في العلم : ١٣ . والدرامي في الرقاق : ٦٤ . والإمام أحمد في ٣ : ٤٧٤ ، وفي ٥ : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) أخرجه أبو داود في العلم : ١٣ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ١٤٢ .

(٥) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

تلك الأصنام ، وأزال تلك الأوثان ، وأخرج الناس من عبادة الانسان إلى عبادة الواحد الديان ، ومن ظلم الطواغيت إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

الناس من جهة التصوير أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم في أصلهم شرف يتفاخرون به فالطين والماء

إن المادية لما طغت على المعنويات أصبحت الموازين مختلة ، والقيم منكوسة ، والمثل منحوسة .

إن الغنى وإن تكلم بالخطأ قالوا أصاب قالوا كلهم
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم أخطأت يا هذا وقلت ضلال
إن الدراهم في المجالس كلها تكسو الرجال مهابة وجلال
فهى اللسان لمن أراد فصاحة وهى السلاح لمن أراد قتال

تباركت ربنا وتعاليت ، يا من أوصيت نبيك بهؤلاء الضعفاء :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ :

قال ابن عباس : ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعنى تطلب بدلم أصحاب الشرف والثروة ، هذا هو المعيار الحق والميزان العدل ، فالإنسان حيث يثبت لا حيث ينبت وحيث يوجد لا حيث يولد ، لقد ضلت الإنسانية ضلالاً بعيداً عندما غفلوا عن آيات الله وصاروا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

يمشى الفقير وكل شيء ضده والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت رجل الفتى حنت إليه وحركت أذناها
وإذا رأت يوماً فقيراً ماشياً نبحت عليه وكشرت أنيابها

سبحانك ربى حكمت فعدلت ، وقلت وقولك الحق : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ : أى شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ، ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ : أى أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياح ، ولا تكن مطيعاً له ، ولا محبا لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه ، كما قال سبحانه ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ ^(١) .

ليست السعادة فى الانتشاء باحتساء الكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد ، إنما

السعادة في طاعة الله ورسوله ، وفي الرضا بما قضى ربك ، وارض بما قسمه الله لك تكن أغني الناس ، السعادة في تزكية النفس ، وإشراق العقل ، وصفاء الذهن عن كل مايشغله ويكدره بماديات الدنيا .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذي يأتي قريب ولكن الذي يمضي بعيد

يقول ريتشارد نيكسون : إن الولايات المتحدة لاتعاني أزمة مادية ، إنما تعاني أزمة روحانية ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء في السلع لكننا فقراء في الروح ، نصل في قرب عظيم الى القمر ، ونسقط في خلاف حاد على الأرض .

قوله تعالى : ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا﴾ أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴿ : هذا إخبار كريم من رب كريم إلى نبي كريم ، فما أعظم الخطاب إذا كان من الله ، وما أجله إذا كان موجهاً إلى رسول الله ﷺ ، أى قل يا محمد للناس هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولاشك .

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ : هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال ﴿إنا أعتدنا﴾ : أى أرسدنا ﴿للظالمين﴾ : وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نارا﴾ أحاط بهم سرادقها ﴿ : أى سورها ، فقد كفروا بالحق ، والله هو الحق ، قال تعالى : ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ (١) ، وله دعوة الحق والقرآن حق ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ (٢) ، ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ (٣) .

فاللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق .

اللهم لك خاصمت ، وبك حاكمت ، وإليك أنبت ، وعليك توكلت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وماأسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ولا إله إلا أنت .

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴿ (٤) .

(١) الآية ٦ من سورة الحج .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٣٢ من سورة يونس .

(٤) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة النور ..

ولكل عاقل أن يقف كثيراً أمام قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾^(١)

فيا له من يوم ما أطوله ، ويا له من جبار ما أعدله ، ويا له من خطب ما أهوله ، ﴿ يوم يُدْعَوْنَ إلى نار جهنم دعاً ﴾ * هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾^(٢) .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ : (لسرادق النار أربعة جدر ، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة)^(٣) . أخرجه الترمذى فى صفة النار .

وقال ابن عباس : ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ : حائط من نار .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ : الآية :

قال ابن عباس : المهل : الماء الغليظ ، مثل ذردى الزيت .

وقال عكرمة هو الشيء الذى انتهى حره .

وقال الضحاك : ماء جهنم أسود وهى سوداء وأهلها سود .

﴿ يشوى الوجوه ﴾ : من حره إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه ، ﴿ كلا إنها لظى ﴾ * نزاعة للشوى * تدعوا من أدبر وتولى * وجمع فأوعى ﴾^(٤) .

وقال عبد الله بن المبارك : عن أبي أمامة عن النبي ﷺ فى قوله (ويسقى من ماء صديد يتجرعه)^(٥) قال : ويقرب اليد فيتركه فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شرب قطع أمعاءه ، ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾^(٦) .

وقال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم ، فيأكلون منها ، فاختلبت جلود وجوههم ، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصيبهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذى انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿ بشس الشراب ﴾ : أى بشس هذا الشراب .

وقال تعالى : ﴿ تسقى من عين آنية ﴾^(٧) أى حارة ، كما قال تعالى : ﴿ وبين حميم آن ﴾^(٨) : أى حار .

(٥) الآيات ١٦ ، ١٧ من سور إبراهيم .

(٦) الآية ١٥ من سورة محمد .

(٧) الآية ٥ من سورة الغاشية .

(٨) الآية ٤٤ من سورة الرحمن .

(١) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .

(٢) الآيات ١٣ - ١٦ من سورة الطور .

(٣) أخرجه الترمذى فى (جهنم) : ٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٢٩ .

(٤) الآيات ١٥ - ١٨ من سورة المعارج .

﴿وساءت مرتفقاً﴾ : أى وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعا وموضعا للارتفاق ، كما قال فى الآية الأخرى ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ ^(١) .

قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ :

هذا هو نور الوعد بعد نيران الوعيد ، فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، وعملوا ما أمرهم به من الأعمال الصالحة ، فلهم جنات عدن والعدن الإقامة .

﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ :

أى من تحت غرفهم ومنازلهم .

﴿يحلون﴾ :

أى من الحلية . ﴿فيها من أساور من ذهب﴾ :

وقال فى آية أخرى : ﴿ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ ^(٢) ، وفصله ههنا ، فقال : ﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق﴾ :

فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها ، وأما الاستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق .

وقوله : ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ :

الالتكاء قيل : الاضطجاع ، وقيل : التربع فى الجلوس ، وهو أشبه بالمراد ههنا . والأرائك جمع أريكة وهو السرير تحت الحجلة .

وقوله : ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ :

أى نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت مرتفقاً ، أى حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً ، كما قال فى النار : ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ . وهكذا قابل بينهما فى سورة الفرقان فى قوله : ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ ^(٣) .

ثم ذكر صفات المؤمنين فقال : ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً . خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ ^(٤) .

(٣) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .

(٤) الآتان ٧٥ ، ٧٦ من سورة الفرقان .

(١) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الحج .

سبحانك ربى ، شعاع من رضاك يطفى غضب سلوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبك تزهق الروح ولو أنغمست فى نعيم الدنيا ، قطرة من فيض جودك تملأ الأرض رياً ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر ولياً ، استحي أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف أسألك وأنت أنت ، ان كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

حاسبت نفسى لم أجدنى صالحاً	إلا رجائى رحمة الرحمن
ووزنت أعمالى على فئتن أجد	فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعلى كلها	وحى إذا من وقفة الديان
يأيتها الاخوان إني راحل	مهما يطل عمرى فإني فان
يارب إن لم ترض إلا ذا تقى	من للمسيء المذنب الحيران

الغنى غنى النفس

* وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتُهُمَا بِتَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۖ (٣٧) كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ أَتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ۖ (٣٨) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۖ (٣٩) وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ (٤٠) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۖ (٤١) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۖ (٤٢) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ (٤٣) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ (٤٤) فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۖ (٤٥) أَوْ يُصْبِحَ مَا وَهَا غُورًا فَلَنْ يَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۖ (٤٦) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ۖ فَاصْبِرْ يَقْلِبْ كَفَبِهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلْبِثُنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ (٤٧) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۖ (٤٨) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۖ (٤٩)

المفردات : ﴿ الجنة ﴾ البستان ، سميت بذلك لاجتنان أرضها واستتارها بظل الشجر وكل

مادة (ح.ن.ن) تفيد الخفاء والاستتار كالجنين والجن والمجنون لاستتار عقله وجن الليل : أى أظلم إلى

نحو ذلك . ﴿ أعناب ﴾ : أى كروم متنوعة . ﴿ وحففناهما بنخل ﴾ : أى جعلنا النخل محيطاً بهما مطبقاً بحفافيهما أى جانبيهما ، يقال حَفَّه القوم : أى طافوا به ، ومنه قوله : ﴿ حافين من حول العرش ﴾ ^(١) . وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله ، ﴿ أكلها ﴾ : أى ثمرها ، ﴿ ولم تظلم ﴾ : أى لم تنقص ، ﴿ والنهر ﴾ : لغة فى النهر : وهو مجرى الماء العذب ، ﴿ ثمر ﴾ : أى أنواع من المال يقال ثمر فلان ماله وأثمره : إذا نماه قال الحارث بن كلدة :

ولقد رأيت معاشراً قد أثمروا مالا وولداً

﴿ والصاحب ﴾ : المصاحب لك . ﴿ مجاوره ﴾ : أى يجادله ويراجعه الكلام بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله والبعث ، والمراد من النفر الخدم والحشم والأعوان . ﴿ أن تبید ﴾ : أى تفتنى وتهلك ، ﴿ قائمة ﴾ : أى كائنة متحققة ، ﴿ ومنقلباً ﴾ : أى مرجعاً وعاقبة ، ﴿ سواك ﴾ : أى عدلك وكمالك إنساناً . ﴿ لكننا هو الله ﴾ : أصل التركيب فى الجملة لكن أنا : هو الله رنى (دخله نقل وحذف) ﴿ لولا ﴾ : حرف يفيد الحث على الشيء والتوبيخ على تركه ، ﴿ ماشاء ﴾ : أى ماشاء الله كائن ، ﴿ حسبانا من السماء ﴾ : أى مطراً عظيماً يقلع زرعها وأشجارها ، ﴿ الصعيد ﴾ : وجه الأرض . ﴿ زلقا ﴾ : أى تعيد بحيث تزلق عليها الرجل والمراد أنها تصير تراباً أملس لا تثبت فيه قدم . ﴿ والغور ﴾ : الغائر فى الأرض الغائص فيها ، طلباً : أى عملاً وحركة لرده ، ﴿ وأحيط بثمره ﴾ : أى أهلكت أمواله يقال أحاط به العدو : إذا استولى عليه وغلبه ، ثم استعمل فى كل إهلاك ، ﴿ يقلب كفيه ﴾ : هذا أسلوب فى اللغة يفيد الندامة والحسرة ، فإن من تعظم حسرته يصفق بإحدى يديه على الأخرى متأسفاً متلهفاً ، ﴿ خاوية ﴾ : أى ساقطة ، يقال خوت الدار وخوت وخويت خيا وخويا : تهدمت وخلت من أهلها ، ﴿ والعروش ﴾ : واحداً عرش وهى الأعمدة التى توضع عليها الكروم ، ﴿ منتصراً ﴾ : أى ممتنعاً بقوة عن انتقام الله ، عقبا : أى عاقبة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه نبيه بصبر نفسه مع فقراء المؤمنين ، وعدم طاعة أولئك الأغنياء من المشركين ، الذين طلبوا منه ﷺ طرد هؤلاء الصعاليك ، وأن يعين لهم مجلساً وللأسادة مجلساً آخر ، حتى لا يقال إن السادة ومواليهم يجتمعون فى صعيد واحد ، ويتحدثون وإياهم حديث الند للند ، وفى ذلك امتهان لكبريائهم ، وخفض من عزتهم - قفى على ذلك بمثل يستبين منه أن المال لا ينبغي أن يكون موضع فخر ، لأنه ظل زائل ، وأنه كثيراً ما يصير الفقير غنياً ، والغنى فقيراً ، وإنما الذى يجب أن يكون أساس التفاخر ، وعمدة التفاضل ، هو طاعة الله وعبادته ، والعمل على ما يرضيه فى دار الكرامة حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ :

أى واضرب أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، مثلاً هو مثل رجلين جعلنا لأحدهما بستانين من كروم العنب ، وأحطناهما بنخل ، وجعلنا وسط هذين البستانين زرعاً .

وخلاصة ذلك : إن أرضه جمعت القوت والفواكه وهى متواصلة متشابكة ، فلها منظر ورؤاء حسن ووضع أنيق ، يخلب اللب بجماله وبهجته إذا امتلأ منه البصر .

وقد ضرب الله المثل ليبين حال الفريقين المؤمنين والكافرين من قبل أن الكفار مع تقلبهم في النعيم قد عصوا ربهم ، وأن المؤمنين مع مكابدتهم للشدائد والبأساء قد أطاعوه .

﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ﴾ :

أى كلتا الجنتين أخرجت ثمرها ولم تنقص منه شيئاً في سائر الأعوام ، على خلاف مايعهد في الكروم والأشجار من أنها تكثر غلتها أعواماً ، وتقل أعواماً أخرى .

﴿ وفجرنا خلاهما نهراً ﴾ ::

أى وشققنا وسط الجنتين نهراً كبيراً ، متفرع منه عدة جداول ، ليدوم سقيهما ، ويزيد بهاؤهما ، وتكثر غلتها .

﴿ وكان له ثمر ﴾ :

أى وكان لصاحب الجنتين أموال أخرى غيرهما من ذهب وفضة ثمرها بما أدره من غلات الجنتين ، ومن تجارات أخرى .

وخلاصة ذلك : إنه سبحانه أنعم عليه بخيرات الدنيا صامتة وناطقها ثاغية وراغية ، وكان له مزارع يستخدم فيها أعوانه وخدمه ولا يستعصى عليه شيء من مسرات الدنيا ومباهجها ولذاتها ونعيمها ، وبعد أن تم له الأمر وقعد على سنام العز والكبرياء ، داخله الزهو والخيلاء .

﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ﴾ :

أى فقال لصاحبه المؤمن حين حاوره وراجع الحديث ، مذكراً له بالآيمان بالله والبعث والقيامة : أنا أكثر منك مالا كما ترى من جنات وزروع مختلفة ، وأعز عشيرة ورهطاً تقوم بالذب عني ، ودفع خصومتها ، وتنفر معي عند الحاجة إلى ذلك .

ثم زاد فخراً على صاحبه المسلم وأراه عياناً ما يتمتع به من المناظر البهيجة في تلك الجنان التي لا

تفنى ، وذلك ما أخبر عنه سبحانه بقوله : ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ﴾ :

أى ودخل هذا الذى جعلنا له جنتين من أعناب وأشجار ونخيل ، ومعه صاحبه هاتين الجنتين ، وطاف به فيهما مفاخرأ ، وقال حين عاين مافيهما من أشجار وثمار وزروع وأنهار مطردة : ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبداً . ولا تخرب كما قال ﴿ وهو شاك في المعاد إلى الله والبعث والنشور ﴾ ما أظن أن يوم القيامة آت كما تقولون ، وقد كان فى كل ذلك ظالماً لنفسه ، إذ وضع الشيء فى غير موضعه ، فقد كان أليق به من أن يكون شاكرأ لتلك النعم ، متواضعأ لربه ، لا أن يكون كافراً به ، منكرأ لما جاء به الوحي ، وأقرته جميع الشرائع .

وخلاصة ذلك : إنه لحقه الخسار من وجهين :

(١) ظنه أن تلك الجنة لا تهلك ولا تبيد مدى الحياة .

(٢) ظنه أن يوم القيامة لن يكون .

ثم تمنى أمنية أخرى كان فى شك منها فقال :

﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ :

أى ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ، والذى جرأه على هذا الطمع ، وعلى تلك اليقين الفاجرة ، اعتقاده أن الله إنما حياه بما حياه به فى الدنيا لما له من كرامة لديه ، ولما فيه من مزايا استحق بها أن ينال ما نال .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن الكافر : ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لى عنده للحسنى ﴾ ^(١)

وخلاصة ذلك : إنه لم يعطنى الجنة فى الدنيا إلا ليعطينى فى الآخرة . ما هو أفضل منها ، قال ذلك طبعأ ويُمهاً على الله ، وادعاء للكرامة عنده .

ثم ذكر سبحانه جواب المؤمن له فقال :

﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؟ ﴾ :

أى قال له صاحبه المؤمن واعظأ وزاجراً عما هو فيه من الكفر : أكفرت بالذى خلقك من التراب ؟ إذ غذاء والديك من النبات والحيوان وغذاء النبات من التراب والماء ، وغذاء الحيوان من النبات ، ثم يصير هذا الغذاء ، وما يتحول بعضه الى نطفة يكون منها خلقك بشراً سوياً ، على أتم حال وأحكمه ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، فهذا الذى خلقك على هذه الحال قادر على أن يخلقك مرة أخرى .

والخلاصة : كيف تجحدون ربكم ودلالة خلقكم على وجوده ظاهرة جليلة يعلمها كل أحد من نفسه ، فما من أحد إلا يعلم أنه كان معدوماً ، ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات ، لأنها مثله . وقد أشار إلى ذلك بقوله :

﴿ لَكُنَا هُوَ اللَّهُ رُبِّي ﴾ :

أى لكن أنا لأقول بمقالتك بل أعترف بالوحدانية والربوبية ، وأقول هو الله ربى .

﴿ وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ :

فهو المعبود وحده لا شريك له .

وفى هذا تعريض بأن صاحبه لما عجز الله عن البعث فقد جعله مساوياً لخلقه فى هذا العجز ، وإذا أثبتت المساواة فقد أثبت الشريك .

ثم زاد فى عظمة صاحبه فقال له :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَاقُوهُ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ :

أى وهلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ، ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد مالم يعط غيرك ، وقلت : الأمر ما شاء الله ، والكائن ما قدره الله ليكون ذلك منك اعترافاً بالعجز ، وبأن كل خير بمشيئة الله وفضله ، وهلا قلت : لاقوه إلا بالله إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها فإنما هو بمعونة الله وتأيدته .

وبعد أن نصح الكافر بالإيمان وأبان له عظم قدرة الله وكبير سلطانه ، أجابه عن افتخاره بالمال والنفس ، ورد على قوله : أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً فقال :

﴿ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حَسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلِبًا ﴾ :

أى إن ترى أيها الرجل أفقر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الآية ، ويجعل مالى بك ويرزقنى الغنى ويرزقنى لإيماني جنة خيراً من جنتك ، ويسلبك بكفرك نعمته ، ويخرب جنتك بأن يرسل عليها مطراً من السماء يقلع زروعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض فلن تطيق أن تدركه بعد غوره بطلبك إياه .

وخلاصة ذلك : إن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر ، إما بآفة سماوية ، أو بآفة أرضية ، وهو غور مائها ، وكلتاها تتلف الشجر والزرع والكرم .

ثم أخبر سبحانه بأنه قد حقق ما قدره هذا المؤمن فقال :

﴿ وَأَحِيطْ بِشْمِرِهِ فَأَصْبَحَ يَظْلُ كَفِيهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ :

أى وأحاطت الجوائح بثمار جنته التى كان يقول فيها : وما أظن أن تبید هذه أبداً ، فأصبح يقلب كفيه ندماً وأسفاً على ضياع نفقته التى أنفقها فى عمارتها حين رآها ساقطة على عروشها ، ويتمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحداً .

والخلاصة :

أنه لما أنفق عمره فى تحصيل الدنيا ، وأعرض عن الدين ، ثم ضاعت منه الدنيا حرم الدين والدنيا معاً ، ومن ثم عظمت حسرته وقال : ﴿ ليتنى لم أشرك بربى أحداً ﴾ :
﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ﴾ :

أى ولم تكن له عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ينصرونه ويقدرّون على دفع الجوائح عنه ، أو رد المهلك له من دون الله ، فإن الله هو الذى يقدر وحده على نصره ، وما كان منتصراً بقوته عن انتقام الله منه باهلاك جنته .

وخلصته : إنه لا يقدر على نصره إلا الله ، ولا ينصره غيره من عشيرة وولد وخدم وحشم وأعوان ، كما لا يقدر أن ينتصر لنفسه .

ثم أكد الجملة السالفة وقرر المراد منها بقوله : ﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ : أى فى مثل هذه الشدائد والحن النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها غيره .

﴿ هو خير ثواباً وخير عقباً ﴾ :

أى هو خير جزاء وخير عاقبة لأولياته ، فينتقم لهم منهم ، ويفوز أمرهم إليهم .

وبعد أن ضرب المثل لدنيا هؤلاء الكافرين التى أبطرتهم ، وكانت سبب شقائهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، ضرب مثلاً لدار الدنيا عامة فى سرعة فنائها وعدم دوام نعيمها فقال سبحانه :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ المثل ﴾ : الصفة . ﴿ وهشيماً ﴾ : أى يابساً متفتتاً . ﴿ تذروه ﴾ : أى تنثره وتفرقه . ﴿ مقتدراً ﴾ : أى كامل القدرة . ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ : هى الأعمال الصالحة كلها . ﴿ ثواباً ﴾ : أى جزاء .

المناسبة وإجمالى المعنى

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن جرير عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال :
(استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل : وما هى يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح
والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

وأخرج الطبرانى والنسائى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعاً : (خذوا جنتكم . قيل : يا رسول الله
من أى عدو قد حضر ؟ قال : بل جنتكم من النار ، قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر
فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومحجبات وهن الباقيات الصالحات) .

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض
فأصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾ :

فشبهت الدنيا فى نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات أخضر والتف وأزهر ، ثم صار هشيماً
متفتتاً تنثره الرياح ذات اليمين وذات الشمال ، ومن ثم لا يغتر أهلها بها ، ولا يفخر ذو الأموال الكثيرة
بأمواله ، ولا يستكبر بها على غيره فإنما هى ظل زائل وفى الحديث : (الدنيا كسوق قام ثم انفض) .
﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ :

أى وكان الله ذو الكمال والجلال قادراً على كل شيء إنشاء وإفناء وإعادة . فهو يوحد الأشياء ثم
ينميها ثم يفنيها ، وما حال الدنيا إلا هذه الحال فهى تظهر أولاً ناضرة زاهرة ، ثم تتزايد قليلاً قليلاً ، ثم
تأخذ فى الانحطاط إلى أن تصبح إلى الهلاك والفناء ، فلا ينبغي للعاقل أن يتعجب بما يحوزه منها أو يفخر به ،
أو يصغر خده استكباراً .

ثم بين سبحانه ما كانوا يفتخرون به من محسنات الدنيا إثر بيان حالها بما مر من المثل فقال : (المال
والبنون زينة الحياة الدنيا) :

أى إن الأموال والبنين التى يفخر بها عيينة والأقرع وأضرابهم هى من زينة هذه الحياة ، وليس من
زاد الآخرة . وقد علمت أن الدنيا سريعة الفناء فلا ينبغي التفاخر بها .

وقدم المال على البنين مع كونهم أعز منه لدى جميع الناس ، من قبل أن الزينة به أتم ، ولأنه يعد
الآباء والأبناء فى كل حين ، ولأنه مناط بقاء النفس والأولاد ، وبذا يبقى النوع الانسانى ، ولأن الحاجة
إليه أمس من الحاجة إليهم ، ولأنه زينة بدونهم دون العكس ، فإن من له بنون ولا مال له فهو فى بؤس
وشقاء .

روى عن على كرم الله وجهه : المال والبنون حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد
جمعهما الله لأقوام .

ثم بين ما ينبغي التفاخر به فقال :

﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ :

أى وأعمال الخير التى تبقى ثمرتها للإنسان وهى أفعال الطاعات كالصلاة والصدقات والجهاد فى سبيل الله ، ومساعدة البائسين ، وذوى الحاجات ، خير عند ربك من المال والبنين جزاءً وخير أملاً ، إذ ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا .

وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۖ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَهِذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۖ

المفردات : ﴿ بارزة ﴾ : أى ظاهرة إذ لم يبق على وجهها شئ من العماير ولا من الجبال والأشجار .
﴿ وحشرناهم ﴾ : أى سقناهم الى الموقف من كل أوب . ﴿ فلم نغادر ﴾ : أى لم نترك يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر وهو ترك الوفاء . ﴿ وعرضوا ﴾ : أى أحضروا لفصل القضاء . ﴿ صفاً ﴾ : أى مصطفين . ﴿ موعداً ﴾ : أى وقتاً ننجز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه . ﴿ ووضع الكتاب ﴾ : أى جعل كتاب كل عامل فى يد صاحبه حين الحساب . ﴿ مشفقين ﴾ : أى خائفين . ﴿ والويل ﴾ : الهلاك . ﴿ ويأويلتنا ﴾ : أى ياهلاك أقبل . فهذا أوانك . ﴿ أحصاها ﴾ : أى عدها . ﴿ حاضراً ﴾ : أى مسطوراً فى كتاب كل منهم . ﴿ ولا يظلم ربك ﴾ : أى لا يتجاوز ما حده من الثواب والعقاب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه أن الدنيا ظل زائل ، وأنه لا ينبغي أن يغتر أحد بزخرفها ونعيمها ، بل يجب أن يكون موضع التفاخر العمل الصالح الذى فيه رضا الله وانتظار مثوبته ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أردف ذلك ذكر أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من أخطار وأهوال ، وأنه لا ينجى منها إلا اتباع ما أمر به الدين ، وترك ما نهى عنه ، مما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين ، لا الأموال التى يفتخر بها المشركون على المؤمنين .

ذكر سبحانه من أحوال يوم القيامة أموراً :

١ - ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ :

أى واذكر أيها الرسول يوم تطلع الجبال من أماكنها ، ونسيرها فى الجو كالسحاب ، ونجعلها هباء

منثوراً كما قال : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرهما قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ ^(١) .

أى تذهب الجبال وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا وادى ولا جبل ، وقال : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ ^(٢) ، وقال : ﴿ وبست الجبال بساً * فكانت هباء منبثاً ﴾ ^(٣) .

٢ - ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ :

أى وترى أيها الراى جميع جوانب الأرض بادية ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شئ من العمائر ، ولا شئ من الجبال ، ولا شئ من الأشجار ، فليس عليها ما يسترها ، فيكون جميع الخلق ضاحين لربهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ ^(٤) .

٣ - ﴿ وحشرناهم فلم يغادر منهم أحداً ﴾ :

أى وجمعنا الأولين والآخرين للحساب بعد أن أقمناهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً ، كما قال : ﴿ قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ ^(٥) .

وقال : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ :

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقلت : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشد من أن يهملهم ذلك) ^(٦)

وكما ذكر سبحانه حشر الخلق بين كيفية عرضهم على ربهم فقال :

٤ - ﴿ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ :

أى يعرض الخلق كلهم على الله صفاً واحداً كما قال : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ ^(٧) :

ويقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا أيها الناس أحياء كهيتكم حين خلقناكم أول مرة فرادى حفاة عراة لا شئ معكم من المال والولد .

(٣) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الواقعة .

(٧) الآية ٢٢ من سورة والفجر .

(١) الآيات ١٠٥ - ١٠٧ من سورة طه .

(٢) الآية ٨٨ من سورة النمل .

(٤) الآية ١٠٧ من سورة طه .

(٥) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الواقعة .

(٦) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٨ ، ٤٨ ، وفى تفسير سورة ٥ : ١٤ ، وفى الرقاق : ٤٥ . ومسلم فى الجنة : ٥٦ ، ٥٩ . والترمذى

فى القيامة : ٣ ، وفى تفسير سورة ٨٠ : ٢ . والنسائى فى الجنائى : ١١٨ ، ١١٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٣ . والدرامى فى

الرقاق : ٨٠ ، ٨٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨ ، وفى ٦ : ٥٣ ، ٩٠ .

ونحو الآية قوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾^(١) .

وفي هذا زجر لأولئك المشركين المنكرين للبعث ، الذين يفخرون في الدنيا على الفقراء من المؤمنين بالأموال والأنصار .

أخرج ابن المنذر عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال : (إن الله تعالى ينادى يوم القيامة : يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسنين ، أحضروا حجتكم ، ويسروا جوابكم ، فإنكم مسئولون محاسبون ، ياملأئكتى أقيموا عبادى صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب) .

وفي الحديث الصحيح : (يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يسمعون الداعى وينفذهم البصر ..)^(٢) والحديث له بقية .

﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ :

أى ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا هو كائن . وكنتم مع الافتخار على المؤمنين بالأموال تنكرونه فالآن قد استبان لكم أنه حق ، وأنه لا مال ولا ولد بين أيديكم .

٥ - ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ :

أى ووضع كتاب الأعمال الذى فيه الجليل والحقير في يد صاحب اليمين والشمال ، فترى المجرمين جميعاً نادمين على ما فيه من قبائح أعمالهم وسىء أفعالهم وأقوالهم ، وظهور ذلك لأهل الموقف خائفين من عقاب الحق ، والفضيحة عند الخلق .

﴿ ويقولون يا ويلتنا ما هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ :

أى ويقولون حين وقوفهم على ما في تضاعيفه : يا حسرتنا على ما فرطنا في جنب الله ، ما هذا الكتاب لا يترك هنة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعدها ، فهو محيط بجميع ما كسبته يد الإنسان .

(١) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه البخارى في الأنبياء : ٣ ، ٩ ، وفي تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم في الإيمان : ٣٢٧ . والترمذى في القيامة : ٢٠ ، ٤٨ .
والدرامى في الرقاق : ٨٣ . والإمام أحمد في ١ : ٤ ، وفي ٢ : ٣٦٨ ، ٤٣٥ ، وفي ٣ : ١٦ ، وفي ٤ : ٤٠٧ .

ونحو الآية قوله : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كَرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢) .

مثل النفس إلا مثل الزجاجة التي يضعها المصور في صندوق آلة التصوير ، فكل صورة تقع عليها تهبطها وتحفظها من ضار ونافع ، فإذا كشف الغطاء أبصرنا كل ما عملنا ، ورأينا صورة كما هي من حسن وسيء وفضيلة ورذيلة ، فتقفل في عقولنا فعلها دون كلام ولا كتابة ، وكل أمرىء يراها يقرؤها ، والناس فيها سواء .

ثم أكمل ما سلف بقوله : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ :

مثبتاً في كتابهم خيراً كان أو شراً ، كما قال : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ ^(٣) ، وقال : ﴿ يَنْبَأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ ^(٤) .

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ :

من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بحكمته وعدله ، فإنه سبحانه وعد بإثابة المطيع ، وتعذيب العاصي بمقدار جرمه من غير زيادة ، وأنه قد يغفر له ماسوى الكفر ، ومن ثم لا يعذب أحداً بما لم يعمله ، ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه ، ولا يزيد في عقابه الملائم لعمله الذى نهى عنه ولم يرتضه .

ونحو الآية قوله : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكْ حَسَنَةٌ يَضَاعَفْهَا وَيُؤْتِ مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ^(٥) . وقوله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ^(٦) .

إن الجزاء نتيجة العمل ، والعمل مرسوم فى قوالب حافظه له ، فليس يمكن رفعه ولا دفعه ، ولا يكون الجزاء عليه ظلماً كما لا تعد التخمّة بعد الأكل الكثير ظلماً ، وإنما تلك مسببات لأسباب كل عاقل يعلم أنها نتيجة حتمية لها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدُهُمْ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ

(٤) الآية ١٣ من سورة القيامة .

(٥) الآية ٤٠ من سورة النساء .

(٦) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(١) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة الانفطار .

(٢) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .

(٣) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .

يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾
وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ فسق ﴾ : خرج يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره . ﴿ أفتخذونه ﴾ :
الهمزة في مثل هذا تفيد الإنكار والتعجب ممن يضل مثل ذلك . ﴿ والذرية ﴾ : الأولاد وبذلك قال جمع
من العلماء منهم الضحاك والأعمشى والشعبي ومثل المراد بهم الأتباع من الشياطين والعدو يطلق على
الواحد والكثير كما قال : ﴿ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ ^(١) . ﴿ والعصء ﴾ : أصله ما بين المرفق إلى
الكتف ويستعمل بمعنى المعين كاليد ونحوها وهو المراد هنا . ﴿ فدعوهم ﴾ : أى فاستغاثوا بهم . ﴿ فلم
يستجيبوا لهم ﴾ : أى لم يغيثوهم . ﴿ والموبق ﴾ : مكان الوبوق أى الهلاك وهو النار يقال وبوقاً
كوثب وثوباً : إذا هلك ﴿ موافعوها ﴾ : أى داخلوها وواقعون فيها . ﴿ ومصرفاً ﴾ : أى مكاناً
ينصرفون إليه .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه رده على أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بأموالهم
وأعوانهم ، وقالوا : كيف نخلس مع هؤلاء ، ونحن من أنساب شريفة ، وهم من أنساب وضيعة ، ونحن
أغنياء وهم فقراء .

قضى على ذلك بذكر عصيان إبليس لأمره تعالى بالسجود لآدم ، لأن الذى حداه الى ذلك هو
كبره وافتخاره عليه بأصله ونسبه ، إذ قال : ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ ^(٢) .
فأنا أشرف منه أصلاً نسباً فكيف أسجد له ؟ .

وقد تكرر ذكر هذه القصة في مواضع من الكتاب الكريم ، وهى فى كل موضع سبقت لفائدة غير
ما جاءت له فى المواضع الأخرى ، على اختلاف أساليبها وعباراتها ، ولا غرو فهى من نسج العليم الخبير .

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾ :

واذكر أيها الرسول لقومك وقت قولنا للملائكة : اسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام ، إعترافاً
بفضله ، واعتذاراً عما قالوه فى شأنه ، من نحو قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ^(٣) .
فسجدوا كلهم أجمعون امتثالاً إلا إبليس أبى وأستكبر ..

(١) الآية ٧٧ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٧٦ من سورة ص .

(٣) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

ثم بين السبب في عصيانه ومخالفته للأمر فقال : ﴿ كان من الجن ﴾ :
 أى إن الذى منعه من السجود أنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بينهم ،
 متصفاً بصفاتهم ، بدليل أنه قال : ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ ^(١) .
 ولأنه تعالى أثبت له في هذه الآية ذرية ونسلا ، والملائكة لا ينسلون ، ولأن الملائكة لا
 يستكبرون ، وهو قد استكبر .

ويرى قوم أنه كان من الملائكة بدليل أن خطاب السجود كان معهم ، ولأن وصف الملائكة بأنهم
 لا يعصون الله ما أمرهم دليل على أنه يتصور منهم العصيان ، ولولا ذلك مامدحوا به لكن طاعتهم طبع
 وعصيائهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ، ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولأنه تعالى ذكر من هاروت
 وماروت ماذكر ، وهما ملكان على أنه لا دليل على أن هناك فروق جوهرية بين الملائكة والجن ، بها يمتاز
 أحدهما عن الآخر ، بل هى فروق في الصفات فحسب ، والجميع من عالم الغيب لا نعلم حقيقتهم ،
 ولانضيف اليها شيئاً إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ :

أى فصار فاسقاً كافراً بسبب أمر الله للملائكة المعداد هو في عدادهم ، إذ لولا الأمر ما تحقق
 إباء ، وفي الآية إيماء إلى أن فسقه قد نتج عن كونه من الجن إذ أن من شأنهم التمرد والعصيان لكدورة
 مادتهم ، وخبائث ذاتهم .

ثم حذر سبحانه من اتباعه بعد أن استبان من حاله ما استبان ، فقال : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء
 من دونى وهم لكم عدو ﴾ .

أى وبعد العلم بما صار منه من القبائح لا ينبغي لكم أن تتخذوه وأولاده وأعوانه أولياء لكم من
 دونى ، تطيعونهم بدل طاعتي ، وهم لكم أعداء .

﴿ بش للظالمين بدلا ﴾ :

أى بش البديل للكافرين بالله أتخاذ إبليس وذريته أولياء من دونه ، وهو المنعم عليهم وعلى أيهم آدم
 من قبلهم ، المتفضل عليهم بما لا يحصى من الفواضل ، ثم بين السبب في عدم إستحقاق إبليس وذريته هذه
 الولاية في أنفسهم ، فقد فبعد بيان خبائث أصولهم فقال :

﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ :

أى ما حضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فكيف
 تطيعونهم وتعبدون الأصنام من دونى وهم عبيد أمثالكم ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟

﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ :

أى وما كنت متخذاً من لا يهدون إلى الحق أعواناً وأنصاراً ، لأنهم يضلون فمتبعهم يحور عن قصد السبيل ، ولا يصل إلى هدى ، فكيف اتبعوهم وعبدوا الأصنام على مقتضى وسوستهم .
ثم أخبر سبحانه عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريراً لهم وتوبيخاً فقال :

﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ :

أى واذكر أيها الرسول يوم الجمع حين يقول الله تعالى للكافرين على سبيل التأنيب والزجر : نادوا للشفاعة لكم من زعمتم فى الدنيا أنهم شركائى . لينقذوكم مما أنتم فيه ، والمراد بهم كل ماعبد من دون الله فدعوهم ليستغيثوا بهم ، ويشفعوا لهم فلم يغيثوهم .

﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ :

أى وجعلنا بين المشركين وماكان يدعون من دون الله شركاء فى الدنيا موضعاً للهلاك وهو النار ، حسماً لأطماعهم أن يصل إليهم من دعوة للشفاعة .

﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ :

أى وعاین المشركون النار يومئذ فعلموا أنهم داخلوها ، ولم يجدوا بداً من الوقوع فيها ، لأن الله قد حتم عليهم ذلك فلا معدل لهم عنها ، ولا مكان لهم ينصرفون إليه ويزيلونها ، وقد أحاطت بهم من كل جانب .

مواقف ودروس

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَلَّا وَلِيْنَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا ذَا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ

الْغَفُورُ ذُو الرِّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا
مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

المفردات : ﴿ صرّفنا ﴾ : أى ردّدنا وكررنا ، ﴿ والمثل ﴾ : الصفة الغريبة ،
﴿ والجدل ﴾ : المنازعة بالقول ويراد به هنا المماراة والخصومة بالباطل ، ﴿ وسنة الأولين ﴾ : الإهلاك
بعذاب الاستئصال ، ﴿ والقبل ﴾ : (بضمّتين) الأنواع والألوان واحدها قبيل ، ﴿ ليدحضوا به
الحق ﴾ : أى ليبطلوه ويزيلوه من قولهم دحضت رجله أى زلقت ودحضت حجته بطلت ، ﴿ وما
أنذروا ﴾ : أى ما خوفوه من أنواع العقاب ، ﴿ ونسى ماقدته يده ﴾ : أى لم يتدبر عواقبه ،
﴿ أكثت ﴾ : أى أغطيت واحدها كنان ، ﴿ أن يفقهوه ﴾ : أى أن يفهموه . ﴿ وقرا ﴾ : أى ثقلا في
السمع . ﴿ الموعد ﴾ : يوم القيامة ، ﴿ موثلا ﴾ : أى ملجأ ؛ يقال وأل فلان الى كذا وألاووعولا :
إذا لجأ إليه . ﴿ القرى ﴾ : أى قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم .

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها أنه تعالى بعد أن ذكر سبحانه شبهات المبطلين ، ورد عليه بأدلة لا
تدحض ، وبرهانات لا تُرد . قفى على ذلك بيان أن في القرآن من الأمثال ما فيه مقنع لمن تذكر وتدبر ،
وألقى السمع وهو شهيد ، لكنها القلوب قد تحجرت ، والأفئدة قد قست ، فلا تنفع فيها الذكرى ، ولا
تستجيب لوعظ الواعظ ، ونصيحة المذكر ، ولو آخذهم ربهم بما كسبوا لأرسل عليهم العذاب معجلا ،
ولم يُبق منهم على ظهر الأرض أحداً ، ولكنه الغفور ذو الرحمة ، فجعل هلاكهم موعداً ، لعلهم يثوبون
إلى رشدهم ، ويرعوون من غيهم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء
جدلا ﴾ :

أخرج الشيخان وابن المنذر وابن أبي حاتم عن على كرم الله وجهه : « إن النبي ﷺ طرده وفاطمة
ليلاً فقال : (ألا تصليان ؟) فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف
حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلّى شيئاً ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول : (وكان الإنسان أكثر
شيء جدلا) » (١) .

وفي الآية إخبار عما في القرآن الكريم من الأمثلة التي وضحها الله تعالى وبينها : ﴿ ويضرب الله
الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ (٢) وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴿ (٣) .

(١) أخرجه البخارى في التهجيد : ٥ ، وفي الاعتصام : ١٨ ، وفي التوحيد : ٣١ . ومسلم في المسافرين : ٢٠٦ .

(٢) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٣) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾^(١) . ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾^(٢) .

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾^(٣) .

وكان على الإنسان وهو الذي شرفه الله بالعقل أن يستعمل تلك الجوهرة الربانية في التدبر والتفكير والتذكر ، لكنه وظف العقل في غير سبيل الرشاد ، فكان أكثر المخلوقات جدلاً ، يجادل في الحق من بعد ما تبين ، كما يجادل في الأدلة الساطعة والحجج القاطعة . فتراه يقول : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾^(٤) .

وكما يجادل في الوحدانية تراه يمارى في النبوة : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾^(٥) . ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم لئن كنتم إداً لخاسرون ﴾^(٦) .

﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾^(٧) ..

إلى غير ذلك مما جادلوا فيه .

قوله تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ :

إن تعجب فاعجب معى لقوم جاءهم الهدى فلم يؤمنوا ولم يستغفروا ربهم فيغفر لهم .

قال نوح لربه : ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتهم دعائى إلا فراراً * وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً * ثم إني دعوتهم جهاراً * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾^(٨) .

أندري ما منعهم عن اتباع الهدى والرشد ، إنك لتأخذنك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما

(١) الآية ٢١ من سورة الحشر .

(٥) الآية ٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٦) الآيات ٣٣ ، ٣٤ من سورة المؤمنون .

(٣) الآيات ٢٤ ، ٢٦ من سورة إبراهيم .

(٧) الآية ٧ من سورة الفرقان .

(٨) الآيات ٥ - ١٢ من سورة نوح .

(٤) الآية ٥ من سورة ص .

تقف على حقائق الأسباب ، لقد منعهم الكبر والعناد والجحود ، وكأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلمة ، اسمع إلى ما طلبوه بعد بيان الحق والهدى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(١) .

لقد طلبوا عذاب الاستئصال الذي استعمله الله مع الأمم السابقة . كما طلبوا أن يأتيهم العذاب قبلاً كما جاء في قولهم : ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٢) .

ولو كانوا عقلاء ، وأزالوا الغشاوة عن عيونهم ، لقالوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ولذا جاء قوله تعالى ردّاً عليهم : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَمِجَادِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَآئِدًا هَٰؤُلَاءِ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى رسالة الأنبياء إلى أقوامهم ، كما يبين موقف الكافرين منهم ، فالأنبياء بعثوا بالخير والسعادة وجنات النعيم لأهل الحق والتوحيد والطاعة والأعمال الصالحة . كما بعثوا منذرين بين يدي عذاب شديد لأهل الباطل والجحود والعناد والإنكار ... قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٣) .

وقال في حق خاتمهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مَبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾^(٤) .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾^(٥) .

أما أهل الباطل فإنهم يجادلون في الحق وهو واضح . قال تعالى : ﴿ مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(٦) . وقال جلّ شأنه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾^(٧) .

إنهم واهمون عندما يظنون أنهم بباطلهم يستطيعون أن يزيلوا الحق ويدحضوه ويمحوه . إن الشمس هي الشمس لا يستطيع أحد أن يطفى نورها بغمه . ﴿ يَرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مَتَمِّمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾^(٨) .

لقد جهل هؤلاء أو أغفلوا حقيقة الرسالات ، فأخذوا يقترحون على الأنبياء الآيات : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا ﴾

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٢٩ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

(٦) الآية ٤٨ من سورة الأنعام .

(٧) الآية ٣ من سورة الحج .

(٨) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴿١﴾ .
ومع ذلك لقد اتخذوا آيات الله وحججه وبراهينه والدلائل القاطعة على وحدانيته ؛ اتخذوها هزواً ولعباً : ﴿٢﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴿٣﴾ ، ﴿٤﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴿٥﴾ . فليتهم قالوا : فاهدنا إليه .

قوله تعالى : ﴿٦﴾ ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها ، ونسى ما قدمت يدها ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴿٧﴾ :

الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفي ، أى لا أحد أشد ظلماً من هذا الذى جاءته البينات والهدى وذكر بآيات ربه فلم يتذكر إنما أعرض عنها ونأى بجانبه واستكبر . ونسى ما قدمت يدها من الخطأ والكفر والجحود .

ثم بين الله العلة الكامنة في حال هؤلاء فقال : ﴿٨﴾ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴿٩﴾ : أى أغطية وحجباً مانعة من الفقه والفهم ، كما جعلنا في آذانهم وقراً وثقلاً . قال تعالى : ﴿١٠﴾ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴿١١﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿١٢﴾ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴿١٣﴾ .

وهذا هو الجزاء العادل ، قال تعالى : ﴿١٤﴾ جزاء وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴿١٥﴾ .

ولابد أن تكون نتيجة ذلك بعد أن سدت منافذ المعرفة لديهم .

﴿١٦﴾ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴿١٧﴾ :

قال تعالى : ﴿١٨﴾ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴿١٩﴾ ، وقال جل شأنه ﴿٢٠﴾ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿٢١﴾ .

(٥) الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة النحل .

(٦) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة النبأ .

(٧) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٨) الآية ٥ من سورة الصف .

(١) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٥ من سورة الفرقان .

(٣) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الأنفال .

(٤) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة البقرة .

ومع هذه الجرائم التي ارتكبوها ، فإن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء فلو عاملهم بعدله ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

قال تعالى : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً ﴾ :

أى وربك أيها المخاطب الغفار لذنوب عباده إذا هم تابوا وأنابوا . قال تعالى : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ ^(١) وهو ذو الرحمة الواسعة : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ ^(٢) .

ومن مظاهر رحمته أنه يعاملهم بفضله فلو عاملهم بعدله لعجل لهم العذاب ، أى عذاب الاستئصال . قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ ^(٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً ﴾ :

أى ملجأ يلجأون إليه فراراً منه : ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لاويزر * إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ ^(٥) .

ولقد أقام الله تعالى الأدلة القاطعة على ماسبق فقال : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ :

المقصود بالقرى هنا القرى الظالمة ، كعاد وثمود وأصحاب مدين وقوم لوط .

قال تعالى : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ^(٦) .

فالظلم مرتعه وخيم وهو ظلمات يوم القيامة ، وهو لا يدوم وإذا دام دمّر . قال تعالى : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ ^(٧) .

(٥) الآيات من ١٠ - ١٢ من سورة القيامة .

(٦) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

(٧) الآية ٥٩ من سورة القصص .

(١) الآية ٨٢ من سورة طه .

(٢) الآية ٧ من سورة غافر .

(٣) الآية ٦١ من سورة النحل .

(٤) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

قصة موسى والعبء الصالح

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أBRحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنِّي نَادَا عَادًا نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا الْبَقِيَ غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَتَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنَكَ سَانِيْتُكَ بَنَؤِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرَ أَمْنَةٍ زَكْوَةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا

أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

المفردات : ﴿ لا أبرح ﴾ : أى لا أزال سائرا ، ﴿ والحقب ﴾ : (بضمين وبضم فسكون) الدهر ، وقيل ثمانون سنة ، وعن الحسن سبعون ، مجمع بينهما ، أى مكان اجتماعهما ﴿ سرباً ﴾ : أى مسلكا كالسرب : وهو النفق فصار الماء عليه كالقنطرة ، ﴿ والغداء ﴾ : الطعام الذى يؤكل أول النهار والمراد به هنا الخوت ، ﴿ نصبا ﴾ : أى تعب وإعياء ، ﴿ أوينا ﴾ : أى التجأتا نبغى : نطلب ، ﴿ ارتدا ﴾ : رجع ، ﴿ على آثارهما ﴾ : أى على طريقهما الذى جاء منه . ﴿ قصصا ﴾ : أى أتباعاً من قولهم قص أثره إذا اتبعه ، ﴿ الرشد ﴾ : (بضم فسكون وبفتحتين) إصابة الخير ، ﴿ والإحاطة بالشئ ﴾ : معرفته تامة ، ﴿ والخير ﴾ : المعرفة ، ﴿ وذكرأ ﴾ : أى بيانا ﴿ إمرا ﴾ : أمراً عجيباً ، ﴿ ولا ترهقنى ﴾ : أى لا تحملنى ، ﴿ والعسر ﴾ : ضد اليسر وهو المشقة . ﴿ زكية ﴾ : طاهرة من الذنوب ، بغير نفس أى بغير حق قصاص لك عليها ، ﴿ والنكر ﴾ : النكر الذى تنكره العقول وتنفر منه النفوس . ﴿ فلا تصاحبني ﴾ : أى فلا تجعلنى صاحباً لك ﴿ بلغت من لدنى عذراً ﴾ : أى وجدت عذراً من قبلى ، ﴿ استطعما أهلها ﴾ : أى طلبا منهم أن يطعموهما ، ﴿ أن يضيفوهما ﴾ : أى ينزلوهما أضيفاً : يقال ضافه إذا كان له ضيفاً ، وأضافه وضيفه : أنزله لديه ضيفاً ، وأصل ضاف : مال ، من قولهم ضاف السهم عن الهدف : أى مال . ﴿ جدارا ﴾ : أى حائطاً ، أن ينقض : أى يسقط بسرعة ، وقد كثر فى كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم . ﴿ أقامه ﴾ : أى مسح يده فقام كما روى عن ابن عباس ، ﴿ والتأويل ﴾ : من آل الأمر إلى كذا : أى صار إليه : فإذا قيل ماتأويله : أى ما مصيره . ﴿ المساكين ﴾ : واحدهم مسكين ، وهو الضعيف العاجز عن الكسب لأمر فى نفسه أو فى بدنه ، ﴿ يعملون فى البحر ﴾ : أى يؤاجرون ويكتسبون ، ﴿ أعياها ﴾ : أن أجعلها ذات عيب بنزع مانزعتها منها ، ﴿ وراءهم ﴾ : أى أمامهم وهو لفظ يستعمل فى الشئ وضده . ﴿ خشينا ﴾ : أى خفنا ، ﴿ أن يرهقهما ﴾ : أى يحملهما ، ﴿ طغيانا ﴾ : أى مجاوزة للحدود الإلهية ، ﴿ زكاة ﴾ : أى طهارة من الذنوب ، ﴿ رحما ﴾ : أى رحمة كالكثرة والكثرة ، ﴿ عن أمرى ﴾ : أى عن رأى وإجتهادى ، ﴿ مالم تسطع ﴾ : أى تستطع ماضيه اسطاع ، الذى أصله استطاع .

مقدمة

١ - من موسى ؟

موسى الذى ذكر فى هذه الآية هو موسى بن عمران ، نبي بنى إسرائيل ، صاحب المعجزات الظاهرة ، والشريعة الباهرة ، والدليل على ذلك :

أنه ماذكر الله موسى في كتابه إلا أراد صاحب التوراة ، فأطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ، ولو كان شخصاً آخر سمي بهذا الاسم لوجب تعريفه بما يوجب الامتياز ويزيل الشبهة .

٢ - من فتاه ؟

فتى موسى - هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام ، وقد كان يخدمه ويتعلم منه ، والعرب تسمى الخادم فتى ، وفي الحديث الصحيح : (ليقل أحدكم فتى وفتاتى ، ولا يقل عبدي وأمتي)^(١) ، وهذا من محاسن الآداب الشرعية .

٣ - من الخضر ؟

(بفتح الخاء وكسرهما وكسر الضاد وسكونها) لقب لصاحب موسى ، واسمه بلّيا (بفتح الباء وسكون اللام) ابن ملكان والأكثر على أنه كان نبيا ولهم على ذلك أدلة :

(أ) قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ : والرحمة : النبوة بدليل قوله : ﴿ أَمَّهُمْ يَقْسُمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ ﴾^(٢) :

(ب) قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ : نرو هذا يقتضى انه علمه بلا واسطة معلم ولا إرشاد مرشد ، وكل من كان كذلك كان نبيا .

(ج) أنه قال له موسى : ﴿ هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ ﴾ : والنبى لا يتعلم من غير النبى .

(د) أنه قال : ﴿ وَمَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ : أى بل قد فعلته بوحي من الله وهذا دليل النبوة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأنصار ، وأمتنعوا عن حضور مجلس النبي ﷺ ، لكلا يشتركا مع أولئك الصعاليك في مجلس واحد ، قضى على ذلك بذكر قصص موسى عليه السلام مع الخضر ، ليبين بها أن موسى مع كونه نبياً صادقاً ، أرسله الله إلى بنى إسرائيل بشيراً ونذيراً ، وهو كلم الله - أقر أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه ما لم يعلمه ، وفي ذلك دليل على أن التواضع خير من التكبر .

روى البخارى ما خلاصته : (أن موسى عليه السلام قام في بنى إسرائيل خطيباً فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب عليه ربه ، إذ لم يرد العلم إليه تعالى ، فأوحى إليه : إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، وأمره أن يأخذ حوتاً في مكنل ، فحيثما فقد الحوت فهو ثمة ، ففعل ذلك ، وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا صخرة فناما فاضطرب الحوت وسقط في البحر - فاتخذ سبيله في البحر

(١) أخرجه البخارى في العتق : ١٧ . ومسلم في الألفاظ : ١٣ ، ١٥ . وأبو داود في الآداب : ٧٥ . والإمام أحمد في ٢ : ٣١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٦٣ ، ٤٨٤ ؟ ٤٩١ ، ٥٠٨ .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

سرباً - وصار الماء كالطاق عليه وهو يجرى ، فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، وانطلقا بقية يومهما وليتهما . فلما كان الغد طلب موسى الغذاء ووجد النَّصَب ولم يكن ذلك إلا بعد أن جاوزا المكان الذى أمر الله به ، فقال فتاه : إني نسيت الحوت ، وذكر ما كان من أمره عند الصخرة ، فارتدا على آثارهما قصصا ، حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجى بثوب أبيض ، وكان من أمرهما ما سترى من مسألة السفينة والغلام والجدار^(١) .

وبعد أن ذكر الأمور الثلاثة التى رآها موسى حين صاحب الخضر ، وذكر ما كان من اعتراض موسى عليه مرة بعد أخرى ، وقد كان أعلمه من قبل أنه لا يستطيع معه صبراً ، وكان من جراء ذلك أنه فارقه ولم يستطع صحبته - أردف ذلك بتفسير ما أشكل عليه أمره ، مما ينكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنة فإن الأنبياء صلوات الله عليهم يحكمون بناء على الظواهر كما قال النبي ﷺ : (نحن نحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر)^(٢) .

وأحكام هذا العالم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة فى نفس الأمر وهذا ما آتاه الله الخضر من قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ويطلع على حقائق الأشياء ، فكانت مرتبة موسى فى معرفة الشرائع والأحكام بناء على الظواهر ، ومرتبة هذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والاطلاع على أسرارها الكامنة .

وخلاصة المسائل الثلاث : أنه حين يتعارض ضرران يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى ، فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها الملك وفاتت منافعتها بتاتا ، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه فى دينهم ودنياهم . ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضرراً من سقوطه - إذ بالسقوط كان بضيع مال أولئك الأيتام .

ومجمل الأمر فى ذلك - إن الله أطلع الخضر على بواطن الأمور وحقائقها فى أنفسها ، وهذا لا يمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الحسية ومن ثم قال فى صفة علمه . ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾ .

وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ، ليعلمه أن كمال المعرفة فى أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ماهى عليها فى الواقع .

قوله تعالى : ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا * فلما بلغا

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٤ ، وفى الأنبياء : ٢٧ ، وفى تفسير سورة ١٨ : ٢ ، ٣ ، ومسلم فى الفضائل : ١٧٠ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٨ : ١ . والإمام أحمد فى ٥ : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى : ٧٩ . ومسلم فى التوبة : ٥٣ . والنسائى فى المساجد : ٣٨ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٥٧ ، وفى ٦ :

مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً * قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا آتياه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴿

يذكر الله تعالى نبيه ومصطفاه بما حدث لموسى عليه السلام عندما قال لفتاه ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ : وسبب ذلك قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون أنه ذكر له عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه ، وقال لفتاه ﴿ لا أبرح ﴾ أى لا أزال سائراً ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ أى مكان اجتماعهما .

﴿ أو أمضى حقباً ﴾ : أى ولو أنى أسير حقبا من الزمان .

قال ابن جرير رحمه الله ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب ثمانون سنة كما روى عن عبد الله بن عمرو .

وقال مجاهد : سبعون خريفاً .

وعن ابن عباس قال : دهرأ .

﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ : وذلك أنه قد أمر بحمل حوت وقيل له متى فقدت الحوت فإن العبد الصالح هناك فسارا حتى بلغا مجمع البحرين فناما هنالك ، وكان الحوت في مكمل مع يوشع عليه السلام وقفز الحوت من المكمل إلى البحر فاستيقظ يوشع بن نون وسقط الحوت في البحر وجعل يسير في الماء ، ولهذا قال تعالى ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ : أى مثل السرب في الأرض .

﴿ فلما جاوزا ﴾ : أى المكان الذى نسيا الحوت فيه قال موسى ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ : أى تعباً .

﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ : ولهذا قال : ﴿ واتخذ سبيله ﴾ أى طريقه ، ﴿ في البحر عجباً ﴾ قال ذلك ما كنا نبغ ﴿ أى هذا الذى نطلب .

﴿ فارتدا ﴾ : أى رجعا ، ﴿ على آثارهما ﴾ : أى طريقهما ﴿ قصصاً ﴾ : أى يقصان آثار مشيها ، ويقفوان أثرهما .

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتياه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ :

وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

قال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرنى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : « إن نوحا البكائى يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فثقل أى الناس أعلم ؟ قال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لى عبداً بجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب وكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سرباً وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليتهما .

حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿ آتانا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً ﴾ .

قال : فكان للحوت سرباً ولموسى وفناه عجباً ، فقال : ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ . قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام . فقال : أنا موسى . فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً .

﴿ قال إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾ : يا موسى إني على علم من علم الله علمتيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، فقال موسى : ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ﴾ قال له الخضر : ﴿ فإن اتبعنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفيتهم لتفرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرأاً ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾

﴿ قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من امرى عسراً ﴾ . قال : وقال رسول الله ﷺ : فكانت الأولى من موسى نسياناً .

قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين ، فقال له الخضر ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له

موسى : ﴿ أَقْلَتِ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا ﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى .

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾ : أَيْ مَائِلًا ، فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ فَقَالَ مُوسَى : قَوْمُ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يَطْعَمُوا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنَبُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَدَدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبِيرًا حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهِمَا)^(١) .

قوله تعالى ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنْ مِمَّا عَلِمْتَ رَشْدًا ﴾ * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴾ * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ * قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ :

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ الْخَضِرِ الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِعِلْمٍ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ مُوسَى ، كَمَا أَنَّهُ أَعْطَى مُوسَى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَعْطِهِ الْخَضِرُ :

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعَكَ ﴾ : سَوَالٌ تَلَطَّفَ لَا عَلَى وَجْهِ الْإِتِّزَامِ وَالْإِجْبَارِ ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ سَوَالُ الْمُتَعَلِّمِ مِنَ الْعَالِمِ .

وقوله ﴿ أَتَبِعَكَ ﴾ : أَيْ أَصْحَبِكَ وَأَر_اقِقْكَ : ﴿ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنْ مِمَّا عَلِمْتَ رَشْدًا ﴾ : أَيْ مِمَّا عَلِمَكَ اللَّهُ شَيْئًا أَسْتَرْشِدُ بِهِ فِي أَمْرِي ، مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ، فَعِنْدَمَا ﴿ قَالَ ﴾ : : الْخَضِرُ لِمُوسَى ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ : أَيْ إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى مُصَاحِبَتِي لِمَا تَرَى مِنِّي مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ ، لِأَنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَا عَلِمَكَ اللَّهُ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَا عَلِمْنِيهِ اللَّهُ ، فَكُلُّ مَنَا مَكْلَفٍ بِأُمُورٍ مِنَ اللَّهِ دُونَ صَاحِبَةٍ ، وَأَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى صَحْبَتِي ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴾ فَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّكَ سَتَنْكَرُ عَلَيَّ مَا أَنْتَ مُعْذُورٌ فِيهِ ، وَلَكِنْ مَا اطَّلَعْتَ عَلَى حِكْمَتِهِ وَمُصْلَحَتِهِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي اطَّلَعْتَ أَنَا عَلَيْهَا دُونَكَ .

﴿ قَالَ ﴾ : أَيْ مُوسَى : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ . أَيْ عَلَى مَا أَرَى مِنْ أُمُورِكَ . ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ : أَيْ وَلَا أَخَالِفُكَ فِي شَيْءٍ .

فَعِنْدَ ذَلِكَ شَارَطَهُ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ : أَيْ إِبْتِدَاءً ﴿ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ : أَيْ حَتَّى أَبْدَأُكَ أَنَا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي .

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : سأل موسى عليه السلام وبه عز وجل فقال : أَيْ رَبِّ أَيْ عِبَادِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قال : (الَّذِي يَذْكُرُنِي وَلَا يَنْسَانِي) . قال : فَأَيُّ عِبَادِكَ أَقْضَى ؟ قال : (الَّذِي يَقْضِي بِالْحَقِّ وَلَا يَتَّبِعُ الْهَوَى) قال : أَيْ رَبِّ فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ ؟ قال : (الَّذِي يَتَّبِعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ عَسَى أَنْ يَصِيبَ كَلِمَةً تَهْدِيهِ بِهَا إِلَى هَدًى أَوْ تُرْهِدَهُ عَنْ رَدًى) . قال : أَيْ رَبِّ هَلْ فِي أَرْضِكَ أَحَدٌ أَعْلَمُ

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة : ١٨ ، ٢ ، ٤ . والترمذي في تفسير سورة : ١٨ : ١ .

منى ؟ قال : (نعم) قال : فمن هو ؟ قال : (الخضر) قال : وأين أطلبه ؟ قال : (على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت) قال : فخرج موسى يطلبه حتى كان ماذكر الله ، وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلم كل واحد منهما على صاحبه ، فقال له موسى : إني أحب أصحابك . قال : إنك لن تطيق صحبتي . قال : بلى قال : فإن صحبتني ﴿ فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾

قال فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس في الأرض ما هو أكثر ماء منه ، قال : ويث الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره ، فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزاً من هذا المال ؟ قال : ما أقل رزاً . قال : ياموسى فإن علمى وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا المال .

وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه ، أو تدلم به ، فمن ثم أمر أن يأقى الخضر ، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإصلاح الجدار ، وتفسيره له ذلك .

قوله تعالى :

﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأاً * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً * قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسراً ﴾ : هذا إخبار من الله تعالى عن انطلاقيهما أى موسى وصاحبه وهو الخضر ، وأنهما توافقا وأصطحبا واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه .

فركبا في السفينة . وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول يعنى بغير أجرة تكرمه للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ، ولججت أى دخلت اللجة ، قام الخضر فخرقها واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها ، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل . ﴿ لقد جئت شيئاً إمرأاً ﴾ قال قتادة : عجباً ، فعندهما قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾ يعنى بهذا الصنيع فعلته قصداً ، وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر على فيها ، لأنك لم تحط بها خيراً ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت .

﴿ قال ﴾ أى موسى ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسراً ﴾ : أى لا تضيق على ولا تشدد على ، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال (كانت الأولى من موسى نسياناً) .

قوله تعالى :

﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقنلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً * قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنى عذراً ﴾ :

روى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس عن أئى بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم : (رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب^(١)) ، ولكنه قال : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنى عذراً ﴾ .
وهكذا قتل الخضر الغلام ، وقال له موسى ﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس ﴾ والمراد بكونها زكية أن صاحبها لم يبلغ الحلم ، ولم يجر عليه القلم ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ : ينكره ذوو الأبواب .
فكان رد الخضر عليه هذه المرة مشتملاً على تأكيد أشد : ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾ .

وقد خلا الرد الأول بعد خرقه السفينة من قوله لك ، لأنها كانت المرة الأولى لذا قال له موسى ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنى عذراً ﴾ .
وهكذا كان أدب التلميذ مع الأستاذ ، فلأستاذ حقه في أن يوجه التلميذ ، وعلى المتعلم أن يقيم للأستاذ وزنه ، جاء في الأثر : ((تعلموا العلم وتعلموا للسكينة وتواضعوا لمن تعلمون منه))^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ :

وأتيا أهل قرية لا يعنينا ما اسمها ، لأن القرآن كما علمنا يهتم بالجواهر والحقائق ، ويهدف إلى الحكمة البالغة ، والقيم الأخلاقية ، والمثل العليا ، ولو كان في تعيينها خير لذكره الله ، ولكن أهل هذه القرية كانوا لغاماً فأبوا أن يضيفوا هذين النبیین الجليلين ، فاعجب معى لقرية أبت أن تحسن ضيافة اثنين ، إن البخل داء وبيل ومرض اجتماعى خطير ، لكن العبد الصالح نظر إلى جدار يريد أن ينقض على الأرض ، فأسرع إليه فأقامه وعدّله ، مما جعل كلم الله موسى يقول له ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ إذ مثل هؤلاء الناس الذين بخلوا بما آتاهم الله من فضله ، ليسوا أهلاً لمعروف يسدى إليهم ، لقد رفضوا الضيافة فلا أقل من أن نأخذ الأجر على العمل .

فقال الخضر لموسى ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ : وهذا وفاء بالشرط الذى اشترطه موسى عندما قال له ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ﴾ : ثم قال له الخضر ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ :

(١) أخرجه مسلم فى الفضائل : ١٧٢ . وأبو داود فى الحروف : ١ .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٣٤ .

ثم أخذ يفصل ما أجمل . فقال : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ :

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنه ، فقال : إن السفينة إنما خرقها لأعيبها ، لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ صالحة أى جيدة ﴿ غصباً ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها ليعيبها فيتفجع بها أصحابها المساكين ، الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها ، وقد قيل إنهم أيتام .

قوله تعالى : ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يدهلما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ﴾ :

قال قتادة في شأن هذا الغلام : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب .
إن حال المؤمن دائماً خير لأنه ينظر دائماً بعين البصيرة نظرة ثاقبة صائبة ، فيرى أمامه ، قوله جل شأنه : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ^(٢) .

وقوله تبارك اسمه ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ^(٣)
إن المؤمن تدور حاله بين الصبر والشكر ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن .
قال جل شأنه ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ ^(٤) .

ياإلهى ما مسنى قدر بكره أو رضا
إلا اهتديت به إليك طريقاً
أمضى القضاء على الرضا منى به
إنى عرفتك فى البلاء رفيقاً
شعاع من رضاك يطفى غضبة ملوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج
أبشّر بخير شأن الفارج الله

(٣) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

(٤) الآية ١٩ من سورة النساء .

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآية ٥١ من سورة التوبة .

اليأس يقطع أحياناً بصاحبه
 لا تيأسن فإن الكافي الله
 إذا بليت فثق بالله وأرض به
 إن الذي يكشف البلى هو الله
 الله يحدث بعد العسر ميسرة
 لا تجزعن فإن الصانع الله
 والله مالك غير الله من أحد
 فحسبك الله في كل لك الله
 صح في الحديث : (لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له)^(١) .

قوله تعالى : ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ﴾ : قال ابن جريج ، وقال قتادة : أبر بوالديه .

قوله تعالى : ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ :

ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما . قال عكرمة و قتادة : كان تحته مال مدفون لهما ، وهو ظاهر السياق من الآية .

عن أبي ذر رفته قال : « إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه : عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجب لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجب لمن ذكر الموت ثم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة ، وورد به الحديث المتقدم ، وإن صح لا ينافي قول عكرمة : إنه كان مالا ، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب ، وفيه مال جليل أكثر مازادوا أنه كان مودعاً فيه علم ، وهو حكم ومواعظ ، والله أعلم .

وفي قوله تعالى : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ : دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة ، لتقر عينه بهم . وعن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .

وقوله : ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ﴾ :

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ١١٧ ، ١٨٤ .

ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله ، وقال فى الغلام : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّ لهما رَبهما خيراً منه زكاة ﴾ : وقال فى السفينة ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أُعِيها ﴾ ، فالله أعلم .
وقوله تعالى : ﴿ رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ﴾ :

أى هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدى الغلام ، ووالدى الرجل الصالح ، وما فعلته عن أمرى ، أى لكنى أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبو الخضر .

قوله تعالى : ﴿ ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ :

ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (إنما سُمى الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هى تهتز من خضراء) .

والمراد بالقروة ههنا الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات .

فائدة

كما أنه فسر له وبينه ووضحه ، وأزال المشكل ، قال : ﴿ تستطع ﴾ : وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً فقال : ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ : فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف ، كما قال : ﴿ فما استطاعوا أن يظهروه ﴾ : وهو الصعود إلى أعلاه ، ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ : وهو أشق من ذلك ، فقابل كلاهما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم .